ضيف لم يأت

هناء منصور

ضيفٌ لم يأتِ

" عندما تكون الحرية غير مكفولة للجميع"

هناء منصور.

مقدمة..

عندما نتساءل أين و مَن نحن مِن الآخر ثم نبحث عن إجابة و لا نجد ما يرضينا البوح به، علينا أن نعلم الأسباب التي تجعل ما يأتي على أذهاننا من إجابات لا يرضينا.
"ضيف لم يأتِ" تبحث عن الأسباب التي تجعلنا أقل من الآخر أحيانا و ليس دائما.
هناء منصور

الثامنة صباحاً، الجو بارد كما هو معتاد في يناير؛ جميع الطرق موحلة بعد مطر غزير امتد من منتصف الليل و حتى الفجر وزهرة تقف في شرفة المنزل المقابل لمستشفى القرية تتابع الطريق. لم تكن الرؤية واضحة بسبب ضباب كثيف لم تفلح الريح و الأمطار في ازاحته عن جو القرية . ومع انتباه زهرة لصوت سيارة تميزه جيداً، دققت، تلاحظ من القادم ، ثم قالت في همس :- إنه هو...
توقفت السيارة داخل المستشفى ونزل منها د \ أحمد طبيب المستشفى غير عابئ بالبرد الشديد و اهتم أن يحفظ ثوبه نظيفا من الوحل الذي انتشر في كل شبر حوله .. همست زهرة وهى تتابعه في إعجاب :

- كان ممكناً أن تتغيب اليوم ،الطقس سيء للغاية . استنشقت نفساً عميق وهى تضم معطفها من البرد وتابعت :- أي نوع من الرجال أنت ؟!

كانت تتمنى لو تنتظر في الشرفة لا تغادرها - لأي سبب - خشية أن يخرج من المبنى دون أن تراه ، لكن صوتا ناداها كي تجيب الهاتف

- صباح الخير.. نورا
-أرجوك ..حاولي أن تعرفي إذا ما كانت سيارة أحمد وصلت بسلام .. لقد صمم على الخروج رغم سوء حالة الجو.
قالت زهرة بمكر :-انتظري قليلا يمكنني أن أراها من خلال شرفتي.

و خرجت لتنظر مجددا نحو المستشفى آملة أن تراه .. لكن ذلك لم يحدث ، فعادت تقول لنورا :

-اطمئني .. وصل بأمان
-أمتأكدة ؟
- تماما مثلما أنا متأكدة أنك نورا صديقتي وهو أخيك
وانتهى الاتصال بالجمل المعتادة .

عندما وصل د. أحمد إلى المستشفى لم يكن أحد من العاملين قد حضر سوى محروس الساعي ، الذي قال بمجرد أن رأى د. أحمد :
- كان حقك عدم الحضور اليوم .. أو الانتظار حتى ينقشع الضباب ولن يلومك أحد..

كان د. أحمد ينظر إلى محروس وهو يتحدث دون أن ينطق بكلمة لأنه يعرف أن محروس نفسه غير مقتنع بما يقول و إلا لما حضر مبكراً فلو كان من حق د.أحمد أن يتغيب عندما يسوء الطقس، لما لا يكون ذلك من حق محروس . كانت له قواعد لا تبرئه من مسؤولياته مهما علت المخاطر ، حريص كل الحرص على العطاء مادام يملك ما يعطيه، يعطي ما يستطيع و لو كان من يعطيه لا يستحق ، كانت ذلك خطأه أو بمعنى آخر خطيئته، نفس تلك الخطيئة التي جعلت زهرة تتخذ منه قيمة و عنوانا لأحلامها و وضعتهما سذاجة منها تحت اسم الحب، نعم إنه حبٌ لكنه أرقى كثيرا من الحب الذي يعرف عن فتاة لم تتم العشرين لرجل في نهاية العشرينيات، كان حب قدوة و حب قيمة حب لذلك المختلف الذي يملك الشجاعة ليواجه وحده.!!

تابع محروس قائلا :

- صدقني يا دكتور .. لو أنا مريض الآن .. لن أذهب لطبيب

حتى يتحسن الطقس .
بدت ابتسامة هادئة على ملامح أحمد و هو يفتح أحد الكتب التي تناولها من المكتبة التي تقبع خلفه وقال :
- من فضلك يا عم محروس، كوب شاي

د. أحمد عبد الجواد كان من أوائل دفعته في كلية الطب. رفض العمل معيداً في الجامعة و فضل العمل في مستشفى القرية التي ولد وتربى فيها معلناً للجميع أن من يقصدون مستشفى الجامعة أو حتي العيادات الخاصة لكبار الأطباء في بلد معظم أهله فقراء لا يذهبون إلا ورائحة الموت تفوح منهم لذلك فإن وجوده في مكان كهذا أهم من وجوده في أي مكان آخر وإن كان مدرساً في الجامعة. هنا يمكنه التشخيص المبكر .. يمكنه أن يعلم الناس كيف تقي أنفسها وتحفظ صحتها بإذن الله. حصل أحمد على درجة الماجستير منذ شهور قليلة و يراسل إحدى الجامعات الأمريكية للحصول على الزمالة . إنه دائما يسعى للأفضل ليس من أجل التميز كفرد، لكن من أجل الأصلح لناس في حاجة لذلك.
زهرة التي تراقبه كلما أمكن كانت تحب كل أفعاله وأقواله .. كانت أحيانا تحدث نفسها بأنه حبيبها وحلم حياتها القادمة . وزهرة لا تلام في ذلك .. فعندما قام أحمد بالإبلاغ عن زراعات البانجو الخاصة بعائلة الطواحني دون خوف من انتقامهم ، كانت القرية كلها في غاية التقدير و الإعجاب به . كان يبدو لمن هن في مثل عمرها بطلا قويا شجاعا.

و في ذات اليوم قررت زهرة و نورا ألا تذهبا إلى المدرسة لأنه في الأيام الممطرة يتغيب معظم المدرسين و يصبح اليوم الدراسي هرجاً ؛ ففكرت أن تستغل وجودها في المنزل أثناء وجوده في

المستشفى تقابله ولو مرة واحدة مباشرة . . وما كان حولها من أسباب تعذر لها الذهاب إليه غير إصابة والدتها بالبرد. عقّدت زهرة لأمها الأمر حتى أقنعتها أن تذهب لاستشارة طبيب المستشفى التي لا تبتعد عن المنزل إلا بضع خطوات. استبدلت الأم وابنتها ملابسهما سريعا ولم تمض دقائق قليلة حتى كانتا داخل قاعة الانتظار في المستشفى.
كان د.أحمد لايزال يحتسي الشاي وهو يقرأ في الكتاب الذي أمامه عندما دخل محروس يخبره أن هناك حالة تريد الكشف بالخارج ؛ سأله د. أحمد:
- ألم يأتِ عامل التذاكر بعد ؟
- نعم .. لم يأت أحدا سوانا
- أدخلها .. وادعوه هاتفيا ليأتي سريعا

دخلت سيدة وابنتها إلى الطبيب ؛ فلاحظ أن الأم هي التي حضرت للكشف .. سألها عن شكواها . قالت السيدة:
-كل ما أشعر به لا يوصف أكثر من اصابة برد.. لكن ابنتي من اقلقني بشأنه
لم تكن حالة السيدة أكثر مما وصفت لذا باتت الدهشة واضحة على الطبيب ، وزهرة تتابعه بنظراتها تود لو كان حديثه إليها.. إليها هي و إن كانت مع والدتها .. فكرت في طريقة تخبره أنها صديقة نورا و أنها زارت منزلهم أكثر من مرة لكنها لم تحظى برؤيته .
لاحظ أحمد شرود زهرة ونظراتها الممتلئة بالإعجاب وهى توجهها إليه ، فقطع أفكارها متسائلا :
- هل أنت طالبة في المدرسة ؟
-نعم
- التغيب عن المدرسة ليس جيداً وخاصة مع اقتراب موعد الامتحان

- يبقى شهوراً..
- ألست طالبة في الإعدادية ؟

أثار السؤال حفيظة زهرة .. إنها صغيرة الحجم ضئيلة القوام . لقد ظنها أحمد كما يظنها كل من لا يعرفها لكنها لا تود أن يراها مثل الآخرين مجرد طفلة .. قالت وهي تحبس دموعها :
- أنا بصدد الالتحاق بالجامعة العام القادم ، وأبي يحب أن أكون.. أن أكون مثلك..

لم يحاول أحمد أن يسألها من تكون .. ولم تعد هي تبغي مزيدا من الحديث معه ؛ لكنها رغم ذلك عادت إلى المنزل سعيدة لأن ما تعرفه عنه لم يعد مجرد أخبار تقصها نورا عليها إعجاباً به .

مساء ذلك اليوم كانت السيدة فاطمة ترجو أحمد قائلة :
- لا تذهب معهم .. لا تحاول أن تعالج أحدا من هذه العائلة.. إنهم أشرار لن ينسوا لك - أبدا - أنك كنت سببا في دخول أحدهم السجن

كرر الأب نفس الرجاء لكن د.أحمد اعترض قائلا :
- لا يمكنني أن أنسى لحظة أني أقسمت أن أغيث كل من يحتاجني .. سأذهب ويفعل الله ما يشاء
كان السيد كامل الطواحني يقف خارج المنزل قائلا بأعلى صوته :
- أسرع يا دكتور والدي في حالة خطر حفظك الله أسرع إليه.
كررت الأم رجائها بصوت خفيض وقالت :

يا بني والدهم رجل يزيد على الثمانين.. مريض منذ سنوات .. ربما اتهموك بقتله إن لم تستطع مساعدته .

لم يستجب أحمد لوالديه وذهب مع كامل الطواحني ليسعف والده . لم يكن في القرية طبيب سواه و هو مشهود له بالكفاءة .، كما أن أقرب مستشفى للقرية يستغرق الوصول إليها ساعة من الزمن . عندما وصل د. أحمد الحاج فرحان كان أجله انقضى فأخبرهم بذلك بعد فحصه و عاد إلى بيته.

وصل أحمد إلى منزله ، لكنه ما لبث أن بدل ملابسه حتى سمع طرقات على الباب وكأنها صوت الرعد.. استيقظ أهل البيت جميعاً واتجه الحاج عبد الجواد ليفتح الباب ، فوجد حسن ابن فرحان الطواحني أمامه غاضباً وقد وضحت رغبة الانتقام في عينيه و هو يقول :
- لن أدع ولدك .. أين هو .. ماذا فعل بوالدي ؟ لقد مات فور خروجه من عنده ..
خرج أحمد مسرعاً وقال :

- لم أستطع أن أفعل له شيئا، وصلنا عنده بعد انتهاء حياته .. أنت متأكد من ذلك .. وصلت إليه بعد أن مات
دفع حسن د\أحمد نحو الجدار بعنف وقال :
- لن أدعك ..

خرج حسن الطواحني من منزل د\أحمد ليتوجه إلى قسم الشرطة للإبلاغ عن د\ أحمد زاعماً أنه قاتل أبيه .
مرت تلك الأحداث قبيل الفجر.. لذا ظلت عائلة السيد عبد الجواد مستيقظة في انتظار الصلاة لكنها لم تكن تنتظر الصلاة فقط ولكنهم أيضاً كانوا يفكرون فيما يمكن أن يفعله آل الطواحني بعد ما حدث تلك الليلة . إنهم واثقون أن أحمد لم يرتكب جرماً ؛ لكنهم واثقون أيضاً أن آل الطواحني لن تترك أحمد يعيش هادئاً بعدما

أدخل واحدا منهم السجن .تساءل السيد عبد الجواد " هل يمكن أن يقتل الولد أبيه لينتقم من شخص آخر... ذلك شيء لا يقبله عقل .. مستحيل أن يحدث .. لكن ماذا حدث .. إن الرجل يتكلم بثقة و حقد بالغان ".
و انتهى السيد عبد الجواد إلى أن يحتاط ليحمي ولده من كيد هؤلاء الناس . وإن كان ذلك لن يتم إلا بهجرته عن أرض الوطن ، لن يسمح بقضاء ابنه يوم واحد داخل الزنازين وهو القدوة والمثال لكل أهل القرية . تحدث إلى ولده بما يدور في عقله وأخبره أن يعد أوراقه سريعا للهجرة إلى أمريكا حيث الجامعة التي يراسلها ؛ كل يجب أن يتم سريعا قبل أن تتخذ الحكومة أي إجراء ضده وبحزم قال لولده :

- جواز سفرك جاهز.. اذهب غدا لإتمام إجراءات سفرك
- أبي ..لما أنت قلق هل يراودك شك أنني مجرم وعلي أن أهرب ؟

كان قلق السيد عبد الجواد يتزايد كلما شعر بإصرار أحمد على البقاء في أرض الوطن حتى خفتت نبرة صوته وهو يرجوه قائلاً :

- أحمد ..أنت ابني الأكبر .. ولكني أعلم منك بتلك العائلة و ذلك الرجل حسن وإخوته . وسكت قليلا ثم تابع :
- إننا لا نهرب دائماً لأننا مجرمين .. ربما يهرب الفرد كي يدافع عن حق يسلب منه من قبل قوة أكبر .. يحتاج أن يبتعد ليمد نفسه بالقوة ثم يعود حين يكون في استطاعته المواجهة .

قال أحمد معترضاً :- أي قوة في الهروب ؟... وغاب عن أبيه، الذي عاد ليكرر ما قاله عليه ليقنعه؛ إلى ذكرياته وهو يدرس في

نهائي الطب وهو يتحدث مع أصدقائه عن أحلامهم في المستقبل.. تذكر عندما قال:

- أريد أن أشارك في بناء وطن قوي عادل ...
فضحك زملاءه وقالوا :

- أين ذلك الوطن ؟

فقال في حماس عاشق :

- هنا في بلادي أول ضوء رأته عيني... أول عبير تنسمه صدري وأول ماء روى بدني وتحت تلك الشمس التي غذتني قبل أن تصبغ جلدي.... هذا وطني !

عاد إلى والده قائلا :

- أبي ..أرجوك .. أريد أن أعيش هنا .. أن أحلم هنا وأحقق أحلامي هنا .. أتمنى أن أموت وأدفن هنا .. في وطني .. في هذه القرية حيث ولدت ليس في أي مكان آخر وإن كان أفضل وأرقى .

حاول السيد عبد الجواد إدخال الطمأنينة على قلب ولده، فقال بعطف :

- ولدي لما كل ذلك الحزن ؟ ..أريدك أن تتم دراستك في بلد متقدم سيساعدك ذلك كثيراً عندما تعود .. وإن لم تجد راحتك هناك عد ؛ ولكن بعد أن يفضي حسن الطواحني بكل ما في جعبته .. كي أستطيع حمايتك منه .. أريد أن أحميك ولدي .. ساعدني .

- أنا لم أظلم أحداً .. لم أهاجم أحدا أو أقتل أحدا .. لماذا أحتاج لحماية، لماذا يفكر أحدا أن يؤذيني ؟

السيد عبدالجواد مقتنع بكل ما قاله أحمد عن حقه في البقاء والدفاع عن حقه في الحرية ، ولكنه يرى أن القانون لم يعد كافياً لحماية البشر من أنفسهم أو من ظلم يقع عليهم ، لذا وجب أن يبعد ولده حتى يطمئن عليه . وكان أحمد مقدرا لكل ما يتحرك في صدر أبيه من خوف عليه فوافق أخيراً على الرحيل وهو في غاية الحزن لما يفعل...
بعد صلاة الفجر كانت عائلة السيد عبدالجواد تودع ولدهم، بالحزن و البكاء ، و هلع يسكن القلوب يجرفها بعيدا فلا تعرفها أقرب لموت أم لحياة، أم تتشبث بولدها، أول من أنجبت بطنها و عرفت معه معنى أن تكون أما، و رأت فيه ابنها البار و أب كسير القلب منتصب القامة يتعجله بالانطلاق قبل بزوغ أشعة الشمس و أخت كانت تفاخر به و تباهي و كأنها ملكت كل رجال العالم فيه، ومن جانب بعيد نادي أخيه بأنه قد حان موعد الانطلاق كان يحثه على الإسراع و هو يرجو الدنيا ألا يفترق عنه و ألا يطول بعاده فهو صديقه الذي يرشده و يشاركه كل حياته ، غرفته و ملبسه و مأكله و وقته. ورغم كل ذلك تظاهر بالتماسك و صار يقول لكل من أبيه و أخيه، " لن تنتهي أفعالهم بسوء لنا، ستكون زوبعة بلا أثر و ستعود سريعا ، لتكن لك فسحة في أمريكا تتعرف بها على الدنيا خارج القرية و حاول أن يسمعهم ضحكته لكنه لم يتمها و شاركهم صمتهم حتى و صلوا به و افترقوا عنه في القاهرة.

استجاب أحمد لطلب أبيه بالرحيل إلى العاصمة . وكان رحيله غير مريب فهو يذهب إلى الجامعة كثيرا هناك . وبعدها بأيام

قليلة مضى إلى نيويورك .
وكان ما حسبه الحاج عبد الجواد صحيحا فبعد أيام من وفاة الحاج فرحان الطواحني قدمت الشرطة للقبض على د\ أحمد بتهمة إعطاء الحاج فرحان مادة سامة عن طريق الفم أدت إلى وفاته.....!!

الفصل الثاني

و بعد عودة عمر من العاصمة لم يدخل البيت سوى دقائق قليلة ثم طلب منه والده أن يستعد كي يصحبه إلى المحامي ، ليخبراه بكل ما حدث، و يسألاه النصيحة.
في البداية سأل عن أحمد ، فأخبره السيد عبد الجواد أنه خارج الوطن، أومأ المحامي رأسه آسفا، فهو بحاجة لتوكيل منه كي يستطيع الدفاع عنه في حالة حدوث أي تطورات للموقف، سأل السيد عبد الجواد و كيف نأتي بتوكيل من الشهر العقاري و هو خارج البلد.
لكن المحامي أخبرهم، أن كل شيء ممكن في بلدنا لكن شيء بحسابه، و نظر إلى عمر يسأله: بطاقة أحمد موجودة أم سافرت معه؟
رد عمر و هو لا يكاد يفهم شيئا ؟ و ما أهمية البطاقة من دونه؟
قال المحامي :- نحتاج بياناتها للتوكيل و أحتاجك معي.
مازال عمر لا يفهم شيئا و يقول للمحامي:- لا أفهم شيئا، من فضلك أخبرنا بما لديك دفعة واحدة.

- يجب أن يصدر التوكيل قبل أن يغادر أحمد الوطن و إلا أمكن الطعن فيه، و تابع السيد عبدالجواد و عمر بنظرة و كأنه يعرف أن أحمد لم يغادر الوطن بعد، ثم تابع حديثه:
- سيأتي عمر ببطاقة أخيه و سأقوم أنا باستخراج التوكيل ببطاقة أحمد و سيوقع هو و كأنه أحمد
- هذا تزوير..
- لا حل آخر.. لا يمكن لأي محام الدفاع عن المتهم بغير توكيل منه و هو غير موجود، و لعلمكم سندفع رشوة لاستخراج التوكيل و أنتم من سيدفعها

قال السيد عبدالجواد بصيغة المستفهم:

- لا سبيل آخر ؟
- لا سبيل آخر غير حضوره

قال السيد عبدالجواد بشعور المضطر:- افعل ما تراه.
قال المحامي:- أين البطاقة ؟
رد عمر بكلمات يائسة:- تركها حيث كان يضع جواز سفره، إنها بالمنزل
فقال المحامي:- فلننهي الأمر اليوم.

خرج عمر مع المحامي بعد أن أتما استخراج التوكيل، تغمره الدهشة من مرور الأمر بيسر لم يتخيله، لقد ظن أنه مقبل على ارتكاب جريمة، و ها الأمر يمر أيسر من استخراج ورقة صحيحة حقيقية. فقال المحامي مستفهما:- أليس ذلك جريمة؟
علت ضحكة المحامي قبل أن يجيبه:- الجريمة تكتمل بأركانها جانٍ و مجني عليه، إذا كان ما فعلناه جريمة فمن الجاني و من المجني عليه؟
تعجب من قوله و سرح في أفكاره، ثم قال لنفسه الجاني حر و المجني عليه هارب، ثم قال المحامي:- قد تبيح الضرورات المحظورات.
عاد إلى البيت بعد أن قضى أطول و أقسى يوم مر به منذ عرف الحياة. أشياء كثيرة صارت تعيد ترتيب نفسها في عقله، اكتشف أن ما عاش به أحمد من مبادئ ربما مبالغا فيه إلى حد ما، فلو استجاب بتعيينه في الجامعة لكان ابتعد عن القرية و أهلها و عائلة الطواحني و جرائمهم. و تساءل ماذا يستطيع أن يفعل شخص واحد في مجتمع أدمن البؤس و أنكر الأخلاق، الرشوة تمر اليوم و كأنها العادة .
و قال محدثا نفسه "أضعت نفسكَ أخي من أجل قوم لن ينتبهوا لاختفائك و لن يصلحهم جهد مئة مثلك، ما كان عليك التفكير سوى بنفسك؛ ما كان عليك أن تتخذ دور

المصلح بين قوم لا يبغون صلاحا".

كانت زهرة تمضي جُل يومها بين الكتب، لا تخرج من البيت إلا لمدرستها ثم تعود بعدها لتظل منهمكة في واجباتها. قال السيد علي لابنته " زهرة ذاكري جيداً .. كلية الطب لا يلتحق بها إلا المجتهد و المجتهد هو الذي يداوم على العمل"

أجابت زهرة في غضب مكتوم

- يداوم .. يداوم هكذا دون راحة ولو لوقت قليل... دعني أذهب لأتنزه بعض الوقت .. أريد أن أنسى ولو يوماً واحداً كل شهر أنني مطالبة بالحصول على مائة بالمائة هذا العام " .

لكن السيد علي لم يكن يتخيل أن زهرة ربما تمل نفسها ويموت عقلها ذا ما حبست مع كتب مغلقة بالصمت والجفاف لأيام وساعات طوال ... لذلك أجاب طلبها قائلاً:

- لن تخرجي .. ليس هناك ما يستدعي خروجك .. إن مللت غرفتك فاخرجي إلى حديقة المنزل .

تمتمت " لا أريد هذه الكلية .. لا أريد الطب " ثم رفعت صوتها قائلة :

- أمرك يا والدي

تمنى السيد عبدالجواد لو كان عالما او طبيبا لكنه لم يستطع لذا حاول أن يحقق حلمه في أحد أولاده . ابنته الكبرى روزان قررت ألا تتم دراستها و أن تتزوج أول شخص يطلبها و بمجرد ذيوع رغبتها في عدم استكمال دراستها توافد خطابها بلا حصر ..! وتزوجت فانتقل حلم الوالد إلى أكتاف زهرة وصارت هي بؤرة الاهتمام مما أثار الغيرة لدى روزان التي صارت تسعى لاستفزاز زهرة بداع أو دون داع .

كانت زهرة تغضب من تصرفات أختها خاصة عندما تجد روزان تحتال على والدها لتأخذ منه الأموال متعللة أن زوجها لا يوفر لها كل ما تحتاج . روزان تحتال لأخذ المال من والدها رغم تحذير زوجها وزهرة لا تستطيع اختلاق سبباً لزيارة صديقتها نورا التي هي في حاجة لها ؛ بعد ذيوع خبر هروب د/ أحمد بعد ما أشيع عن قتله الحاج فرحان الطواحني ... القرية كلها لم يكن لها حديثاً إلا د/أحمد الذي تبحث عنه الشرطة . لقد حاولت مهاتفة صديقتها نورا ، لكنها لم تستطع أن تسألها عن شيء أو الحديث معها عن الموضوع أصلاً ليس لسبب إلا أنها لا تستطيع تصديق ما يقال ... لكن ماذا يعني تغيب نورا عن المدرسة منذ تغيب أحمد عن المستشفى و شيوع ذلك الحديث بين الناس خاصة روزان التي اتخذت من ذلك الحديث سبباً لإغاظة زهرة .. فقد قالت روزان ساخرة لزهرة :
-ها هم ذوي العلم والثقافة .. ذوي المُثل ..يقتلون ولماذا يقتلون ؟ بلا دافع ... عجباً

- لا تكرري ذلك .. مستحيل أن يقتل أحمد
- ولم هرب إذاً ؟

لم تستطع أن تجد جواباً . لابد أن تخرج إلى نورا لتتبين منها حقيقة ما يحدث.. لم ترحم روزان غضب زهرة الصامت وتابعت قائلة :

-إنهم يقولون ..أن د/أحمد سافر للخارج .. خوفاً من انتقام عائلة الطواحني بالقتل أو السجن.

كانت زهرة تشعر بتلميحات روزان التي بدت وكأنها تقول لها " ها هو من تتورد وجنتاك إذا ما ذكره أحد في حضورك.. أراهن

أنك ستبكين لفراقك إياه ..قتل عمدا أو خطأ ؛ لكنه قتل، فهو قاتل"

لم تتحمل زهرة المزيد وصرخت في وجه روزان :

-اصمتي .. لا تذكري المزيد من هذه التلفيقات

وسكتت برهة تحاول إخفاء غضبها ، ثم أضافت :
-لا يمكن أن يقتل د/أحمد إنه أذكى من أن يصبح مجرماً
تدخلت والدتهن :

- إنهم يقولون أن الرجل مات فور خروج د/أحمد من عنده... لذلك اتهموه بقتله

قالت زهرة :- مجرد اتهام حتى يخسر سمعته الطيبة.. إنهم يغلون منه منذ فضح اتجارهم في البانجو.... والحاج فرحان رجل مسن ومريض منذ سنين ما الغريب في وفاته ؟!

راجعتها روزان بسرعة:
- السم .. السم يا زهرة هو الغريب .. من وضع السم يا زهرة ؟ من سقى الرجل السم ؟ لن يذهبوا بجسد أبيهم للمشرحة بعد دفنه .. وذلك إهانة عندنا للميت ..هل يفعلوا ذلك ليسيئوا إلى سمعة عدو فقط..!!!

انسحبت زهرة بهدوء من بين أفراد أسرتها إلى غرفتها لتفكر وحدها في حقيقة ما حدث . لم تستطع النوم . يجب أن ترى نورا سريعاً . كانت تبكي وهي تتساءل :

-هل يمكن أن يقتل أحمد .. هل يمكن لرجل يدعو إلى حب الناس

وإصلاح نفوسهم قبل أجسادهم أن يؤذي نفسا لمجرد الأذى.. لو كان ما يقولون هو الحقيقة فكيف نعيش عليها من بعد ..؟! و تعود بأفكارها و تتساءل:

- و هل يؤذي أحدنا من هم منه و تحت رعايته فقط للانتقام من آخر، أي نوع من النفوس تقبل بذلك، بل هل يستطيع من يملك قلبا أن يقتل، أصدق أن يؤذي تجار البانجو أبيهم انتقاما و حقدا على شخص عفّ عن خشيتهم و تقدير تسلطهم، لكن لا أصدق أن يقتل من يترك ما نراه جميعا كأنه المجد، و يبقي على نفسه طبيبا في قرية تشبه المنفى في بعدها عن المدنية.

لم يكن أحد قد علم بعد أن أحمد لم يسقي الرجل سماً لأنه وصله بعد أن مات. ولم يكن أحد يعلم أيضاً أن الرجل مات نتيجة أزمة قلبية ؛ فهو مريض بالقلب منذ سنوات؛ إلا ثلاثة أفراد هم ابني الحاج فرحان والطبيب الذي قام بتشريح الجثة ؛ والرابع طبعاً كان د/ أحمد الذي كُتب التقرير فيه .

الطبيب الشرعي لم يكن يعرف شيئاً عن القرية التي تم فيها الحادث .. لم يكن يعرف الكثير أو القليل عن عائلة السيد عبد الجواد أو عائلة الطواحني ... لم يكن د/والي يعلم أي شيء عن أي شيء إلا شيء واحد وهو أين تكون مصلحته .. حقاً أن مصلحته ليست في سجن مظلوم لكن وما شأنه بالمظلوم إنه لا يخصه شخصيا، لذا ليس عليه التفكير فيه مطلقاً ويجب عليه أن يركز تفكيره نحو رضا عائلة الطواحني وإن لم تكن على حق لأن مصلحته وراحته في رضاها .. إنها الأقوى و الأغنى .

كان د/ والي يعلن دائماً أمام ضميره أن ما يفعله ليس خطأ لأن هدفه منه هو تحقيق المصلحة لأولاده .. إنه يخشى عليهم من

بطش القوة . ليس هناك ظالم يظن أنه على باطل لأن شيطانه دائماً ييسر له المبررات . هكذا كان ذاك الرجل يوقن أن ما يفعله هو ما يجب في تلك الظروف وأنه غير مخطئ دائماً لأن الأحوال هي التي تقرر الأفعال ...

الفصل الثالث

عندما يتغير الهواء الذي اعتدت استنشاقه فإنه يثقل قلبك لا ينسمه، تشعر بأن أرواحا غريبة، أرواحا ليست طيبة يملأها الشر و إن تظاهرت بالتعاون و الابتسام تحوطك، تتملك وجدانك و تقيد بدنك، تتحرك معها بخطوات ثقيلة محاولا التأقلم ، باحثا عن سبب مقنع لوجودك بينها، مترقبا و لو وجها واحدا تطمئن إليه.
تحرك خارج المطار متوجها إلى الفندق الذي سيقيم فيه حتى تستكين أحواله، و هو يجر حقيبته التي أثقل حملها همومه و إحساسه أنه طريد هارب، لسبب لا يعلمه، لا يفهمه، كان كل ما أراده أن يعيش نظيفا على أرض عم معظمها التلوث، أراد أن يمد يده ليرفع الأذى فقرروا قطعها، لأن وجود الأذى بوجه أو بآخر يحمل منفعة لغيره، رغم رشده و علمه كان غضا حتى أنّ شكوى ملفقة أطاحت به بعيدا عن أصله، و صار غريبا.

قضى ليلته الأولى يحاول استيعاب ما وصل إليه، يحاول جمع ما تشتت منه، و ما تبدل من أحلامه، حاول أن يرسم طريقا آخر، طريقا جديدا لم يأمله لم يبتغيه يوما، ما أصعب حركة القلم حين يخط خلاف إرادة صاحبه، إنه كمن يخط بسكين على عنقه، يقتله و كأنه حي، يجعله كالأشباح. كان يشعر أنه في حلم و أن من سافر و هرب هو شبح له و نفسه الحقيقية لم تغادر و لم تهجر وطنه و أهله.
بعنف صار يرسم خطوطا غير مفهومة و ينادي بقلب خائف، يا ربي أنت لي و معي و إن رحلوا جميعا و إن كان جميعهم ضدي، يا ربي أنت لي ، دافع عني، وكلتك أمري ، فأعني.

في صباح اليوم التالي اتجه نحو الجامعة التي سيتم دراسته بها،

و كأي غريب يحتاج السؤال للوصول، سأل فتاة كانت تركب الحافلة معه:
- هل تستطيعين مساعدتي ؟
سأل أحمد فتاة تجلس في المقعد المقابل له ، أجابته الفتاة بابتسامة وقد لاحظت لهجته و لون بشرته البني وشعره الأسود فتوقعت أنه عربي الأصل ؛ وقالت :
- بالطبع
تساءل أحمد مرة ثانية وقد بدأ يشعر بالإحراج :
- أريد أن أصل إلى جامعة سيتي .. إنها المرة الأولى التي أزور فيها نيويورك.
لاحظ أحمد انتباه الفتاة الشديد إليه أثناء حديثه فصمت برهة، ثم سألها :
- هل هناك ما يثير دهشتك ؟
- لا .. مطلقا
كانت الفتاة تتأمل إنجليزيته التي لا تكاد تفهمها .. رأت فيه وهو يتحدث شيئا لم تعرفه فيمن حولها . كان يتحدث في خجل و توتر لا يحتويهما الخوف ولكن الثقة .. صمتت الفتاة لحظات و هي تتابعه بعينيها ثم قالت :

- أدرس علم النبات في جامعة سيتي... عليك أن تنقح انجليزيتك...
ثم أضافت :

- ما جنسيتك ؟
شعر بإحراج شديد لرأيها في إنجليزيته.. حاول أن يخفيه أو يجعل له عذرا، بإجابته على سؤالها
- أنا عربي .
أجاب بفخر وثقة في وطنه.. فتابعت الفتاة بسؤال آخر:

- هل أنت محمدي ؟
تعجب من السؤال لكنه رأى أن يتعامل معها بحرية مثلما فعلت.
فسألها :
- ماذا تقصدين بمحمدي ؟
شعرت الفتاة من ملامح أحمد ..أنها تسأل عن شيء عير موجود..
أو أنها سألت بطريقة لا تليق فقالت موضحة :
- المحمديون هم الذين يتبعون النبي محمد .
عندما قالت الفتاة النبي محمد تنبه أحمد إلى أنها تريد أن تعرف إذا كان مسلماً أم لا... لكنه لم يجب وسألها:

-أمن الضروري أن تعرفي ديني.. ألا يجب أن نتعامل كأصدقاء أو ..كإنسان وإنسان أو كمواطن وسائح .. ما ال..
قاطعته الفتاة التي لاحظت في حديثه نبرة دفاعية :
- لم أقصد إهانتك لما أنت حساس لحديثي إلى هذا الحد!
حاول أحمد أن يصلح الموقف فقال بسرعة و استحياء:
- آسف
إنهما لم يغادرا الحافلة بعد... كيف يتعامل بهذه الحساسية مع شخص لا تربطه علاقة. ظلاّ صامتين حتى وصلا المحطة .حاول أحمد أن يعرف إذا كانت الفتاة مازالت غاضبة أم لا فقال :
- آسف. أحيانا أفتقد اللباقة في التعامل مع الناس ..اسمي أحمد. عربي مسلم. ما اسمك ؟
قالت الفتاة دون أن تبدي ملامحها أي انفعال :
- ماري
توقفت الحافلة قبل أن يغادرها أحمد وماري التي قالت بعد أن استقرت قدماها على الأرض ؛بنفس اللهجة الرسمية التي قالت بها اسمها :
- علينا أن نسير في ذلك الاتجاه للوصول إلى شئون الطلاب أولا،

ثم ستعرف من هناك كل ما عليك فعله.

شعرت ماري أن أحمد شخص صلب ؛ يفتقد إلى المرونة التي تمكنه من التحاور مع الآخر باحترام واعتقدت أنه كالزجاج سهل الكسر إذا ما اصطدم بأي شيء صلب ..و عليها أن تحتفظ بالمرونة معه حتى تحصل على ما تريد معرفته دون ان تتهشم علاقته بها ورغم ذلك حفظت طريقتها الرسمية في الحديث معه.

أما أحمد فتساءل عما إذا كان من المقبول أن يتحدث إليها بالشفافية التي يتحدث بها إلى أهل وطنه أم لا و راوده إحساس بأن ماري ربما تكون صديقة جيدة له فالإنسان بعادته يميل الى الوجوه الأولى التي يراها إذا ما كان في أرض غريبة . كسرت ماري حاجز الحوار الداخلي بينهما و قالت لأحمد :

- سأساعدك في الحصول على كل ما تحتاج داخل الجامعة ..سأكون مرشدك حتى تألف المكان ..لكن عليك أن تعدني أن أقابلك مرة أخرى خارجها ...

شعر أحمد بالإحراج الشديد من حديثها ومن جرأتها التي لم يعهدها و ارتبك حتى قال دون تفكير :

- و لماذا خارجها
- حتى تحدثني بكل ما تعرفه عن أعظم رجل في العالم ..محمّد ..ألا تعرف عنه الكثير ؟؟

و ابتسم و كأنما استفاق من خوف إلى أمان و قال :

- أعدكِ

تبدل إحساسه بالقلق إلى طمأنينة تجاه ماري ؛ فلم تكن سوى فتاة معجبة بشخص ما وجدت من يخبرها عنه بصدق.

علم أنها ربما تسأله عن أشياء لا يفقهها فعاد إلى القرءان و صار يزيد في تلاوته و تدبره و سأل ربه أن يلهمه الصواب

إذا ما سألته عن أمر لا يفقهه، فلم يكن أحضر معه غير القرءان كتابا يقرأه تعبدا و تدبرا.

الفصل الرابع

بعد عدة أيام من الإلحاح ..استطاعت زهرة إقناع والدها أن صديقتها نورا تمر بظروف سيئة بعدما قيل عن أخيها في القرية ، خاصة سفره المفاجئ

عندما دخلت زهرة من البوابة الخارجية للمنزل بدأت تشعر و كأنه قد شُيّع ميتا منه منذ وقت قليل ، فقد عمّ الصمت و السكون و اسودت الوجوه وزال عنها آثار الابتسام و ذلك لم يكن عادتهم عندما كانت تزورهم من قبل حتى (عُمر) الذي كان يداعبها دوما بقوله " حضرت زهرتنا تنشر العبير حولنا " قابلها في الحديقة و قد حمل فوق كاهله هموم أُمّة كاملة و لم يزد في حديثه لها عن :

- كيف حالك ؟ توقعت زيارتك قبل الآن . نورا تنتظرك بالداخل

و لم تجد زهرة عذرا لعدم زيارتها قبل ذلك و خاصة مع تغيب نورا عن المدرسة ؛ لأنها كانت تعرف أن الاتصال التليفوني لم يكن كافيا عندما يكون المصاب يخص صديقة حميمة ؛ فوجهت لعُمر نظرة تحمل الأسف والخجل . دخلت إلى نورا التي ما لبثت أن رأتها حتى انفجرت باكية و كأنها كانت تغلي كالماء و جاءت زهرة تطفئ النار التي اشتعلت داخلها . قالت نورا وهي تكفكف دموعها :

- هل رأيت ما نحن فيه ..هل عرفت ما حدث لنا ؟؟!!
- لا أصدق ما يقال .. لا أستطيع تصديق كلمة منه ..هل هرب أحمد حقا لأن الشرطة تبحث عنه ؟!!!

كانت نورا تتحدث وكأنها تقطع مع كل كلمة جزءا فيها . قالت نورا وقد فشلت في أن تُجمد دموعها

- أحمد يقتل !!! كيف يقتل من يريد أن يرى كل شيء حوله جميلا ! لو كان في القتل جمال يبهج أي نفس صحيحة على وجه الأرض، لقلت أنه من الممكن أن يقتل أحمد
- لماذا سافر فجأة ؟!!! لقد أكد الاتهام

لم تجد نورا إجابة لسؤال زهرة ؛ لكنها كانت واثقة كثقة نورا في براءة أحمد ، فقالت و هي تقطع الكلمات :

- ل..لقد وجدال..الطب الشرعي ..أثار ال ..ل..لمادة سامة في فم و أمعاء الرجل ..!

كانت العبارة الأخيرة تحمل الكثير بالنسبة لنورا و زهرة على حد سواء ، فلو ظل أحمد في القرية لكان في ذلك الوقت حبيس أقفاص السجن .. لكن من أعطى الرجل السُم ؟؟ من قتله ؟ هل يمكن أن يكون أحد أبنائه ؟؟..هل يقتله أحد من أبناءه ليتهم أحمد!. إن المادة السامة هي آخر ما دخل فم الرجل ... لم تكن بينه وبين أبنائه ما يدعو لأي عنف أو صراع.. إنه لم يمانع أيهم في اختيار طريقته في الحياة و أن كان هذا الطريق مخالفا للشرع والقانون. كيف وصل السم لمعدة الرجل .. و هل السم هو سبب الوفاة أم شيء أخر؟.. الرجل مصاب بمرض في القلب منذ سنوات و السم يسبب توقف القلب و ذلك سبب هو سبب الوفاة الذي أعلنه الطب الشرعي .

يعلم السيد عبد الجواد جيدا مكر أولاد فرحان الطواحني لذلك رفض منذ البداية ذهاب أحمد إليه عندما استغاثوا به . و لأن كامل الطواحني أتى في وقت متأخر لم يقابله فيه غير والديّ أحمد فاختفت فرصة وجود شاهد يوضح للقضاء أنهم هم من ذهبوا ليستغيثوا به .استطاع أولاد الطواحني تضييق الخناق حول أحمد بإحكام لذلك وجب ابتعاده حتى تظهر الحقيقة .

عادت زهرة إلى منزلها وكانت روزان تجلس مع السيد على و حولها أطفالها الثلاثة و تقول :

- عفوا أبي لن أعود إليه ثانية إنه لا يلبي لي حاجاتي ؛ كان خطأ كبير منكم عندما وافقتموني على ترك الدراسة و الزواج مبكرا ..لماذا لم تنصحوني ، لماذا لم تنصحني يا أبي ؟

كانت روزان تتحدث إلى والدها والدموع تفيض من عينيها كذبا و زهرة تتابعها بدهشة و نفور يغلبا على ملامحها التي لا تختلف عن ملامح طفلة و كلما زادت روزان في بكائها ظهر صوت زهرة" أهاااا، مسكينة،" و لهجتها الساخرة واضحة في صوتها، فنهرها أبويها و طلبا منها أن تدخل لتتابع مذاكرتها و ألا تتدخل فيما لا تفقه فيه.

كانت روزان في حاجة لبعض الأموال ، لكن يبدو أنها تحتاج هذه المرة لمبلغ أكبر لذا فقد خلقت مشكلة أكبر ؛ حتى يكون الضغط أعظم على والدها فتصل إلى ما تريد دون سؤال .

إنها تعرف أنها لو سألته شيئا فسيكون عطاء النصيحة لديه أكبر من أي عطاء آخر و هذا ما لم تحبه . فهو كرجل يرى أن قدومها كل حين لتأخذ مصاريفها من أبيها قد يجرح كبرياء زوجها و يشعره بالعجز والتقصير و ذلك ما لا يجب على أي زوجة أن تصل بزوجها إليه .. لأن كرامتها ماهي إلا جزء من كرامته . لكن روزان لا ترى ذلك أبدا فلو استطاعت أن تهدد كلا من أبيها وزوجها لتنال ما تريد لفعلت ؛ لكنها تثق أن كليهما لن يقبل ذلك . من أجل ذلك اختصرت كل تلك المسافات الطويلة من الحوار ..ليقول لها والدها :

- يا ابنتي تحملي حياتك و لا تتركي بيتك .. إنني لا أحرمك شيئا. وصمت قليلا ثم قال :
- كم تريدين ؟

بدأت تعد لوالدها ما تريد و تطلب منه أن يعطيها المال بعد أن يقيّم السعر .

كانت زهرة تتابع كل ذلك و تلاحظ دون أن تتكلم خشية أن تعترضها روزان بتلفيقة لا تستطيع مواجهتها فكانت بسكوتها تتحاشى كثيرا من شرها و لكنها كانت تفكر كثيرا و تتساءل

" ماذا لو علم زوج روزان بما تفعله ؟""
إنها تأخذ الأموال لتشتري مصوغات وملابس و تدعي لزوجها أن المصوغات غير حقيقية أو أنها استعرتها من أي شخص و كثيرا ما يُصدقها زوجها و يطلب منها كثيرا ألا تُكرر ذلك لأنه ذو نفس شامخة و يد عليا تأبى أن تسأل غير الخالق .

الفصل الخامس

التحق أحمد بالدراسة في جامعة سيتي و بدأ يُشْغل بالدراسة حتى كاد ينسى هروبه ؛ لكن القلق كان يعاوده لحظات و يتساءل " ماذا سأفعل بعلم مهما رقى وعظُم وأنا متهم في بلادي بجريمة قتل ؟ هل سأضطر إلى قضاء بقية عمري كله هنا في بلد غريب"" .
كان يتمنى لو يخبره والده في إحدى المكالمات الهاتفية ، أن القاضي قد حكم له بالبراءة وانتهى الأمر وأنه يمكنه العودة و قتما يشاء . سيملك حينها فقط إحساسه بالحرية الذي فقده ، سيملك حماسا أكبر للعلم و العمل. إنه يعيش على أرض توفر له كل ما يحتاجه و لو كان بمقابل، لكنه يستطيع توفير المقابل ، يمكنه على هذه الأرض أن يحترم القانون فتُحترم حقوقه و لا تنتقص، القانون له كما لغيره و عليه كما على غيره ، لا خلاف بين كل من يحملون جنسية البلد أمام القانون. إنه آمن إلى حد كبير لكنه مقيد لا يستطيع السفر حيث يشاء لا يمكنه الحياة كما يشاء فملامحه العربية تنتقصه أمام بعضهم في هذه البلد. و يعلم أنه ضيف على تلك الأرض فهو حريص كل الحرص عند إبداء رأيه في أي موضوع. حتى من كان يلتقي بهم من العرب كان يبتعد عنهم فهم إما مشغولون بين العمل و الدراسة أو مع أسرهم أو أشخاص يسيئون إلى أصولهم و دينهم بتصرفاتهم. و لم يكن يلتقي إلا بقلة من العرب المسلمين حين يذهب إلى الصلاة في المسجد و لأن المسجد ليس قريبا بما يكفي من الجامعة و سكنه ، فكان يذهب هناك أيام إجازاته فقط، وحده أحيانا و أحيانا أخرى يصطحب ماري.

قطع حديثه عن الجميع إلا فيما يخص دراسته و عمله الذي حصل عليه بمساعدة ماري كمساعد لطبيب بأحد العيادات. كانت ماري هي الإنسان الوحيد الذي يأنس إليه و يتحدث

إليه في أمور خارج نطاق الدراسة .. نشأت بينهما صداقة قوية سريعا بدأت بسؤالها عن سيد الخلق مُحمد عليه الصلاة والسلام .. أرادت أن تعرف أكثر عن ذلك الرجل الذي قالوا أنه أعظم الخلق . أخبرها أحمد أن العظمة لا تكمن فيه كشخص ذو خُلُق عظيم فقط ولكنها أيضا في الرسالة التي بُعث بها للعالمين . فما كان محمدا ينطق بشيء لهوى في نفسه و لكنه يخبر الناس بما أوحاه الله إليه.
أخبرها أنه حتى اليوم لم يلتقِ بشخص أو يسمع عن شخص يعرف عن كل العلوم التي يحتويها القرءان و التي علمنا بها عن طريق السنة، فكيف لرجل أمي لا يجيد قراءة و لم يتلقى أي شكل من العلوم و يعيش في بيئة عمتها الجاهلية حتى سجدوا للحجارة ، أن يكون كل هذا العلم عنده، إنما هو وحي خالق الكون إليه. إن محمدا هو رسول الله كما أرسل من قبله عيسى و موسى و كثير من الرسل.

أضاف لها أحمد بأن كل مشاكل الحياة يمكن حلها في أقصر وقت لو التزمنا بتعاليم تلك الرسالة ، كما أنزلها الله، لا كما نريد نحن البشر. رغم ملاحظة أحمد أن ماري في حالة تشوق مستمر لمعرفة المزيد عن الإسلام إلا أنه لم يحاول أن يخبرها شيئا أكثر مما تسأل عنه. فإرادة ماري وعقلها هما ما يحركانها نحو المعرفة و ذلك ما يجعلها تقبلها بحب، إرادة المتعلم لا المعلم هي من تحقق العلم و ليس العكس .
ساق حب ماري للمعرفة عن الإسلام إلى التعمق فيه لمعرفة المزيد حتى سألته يوما عما قيل عن المسيحية في الإسلام و عن عيسى ..كان يُجيبها عن أشياء كثيرة و ما لا يدريه يساعدها في البحث عنه من خلال الكتب وشبكة المعلومات . و بدأ يشعر بالدهشة لذلك، فلم يعُد الأمر مجرد فتاة تريد معرفة المزيد عن شخص أعجبت به.. بدا الأمر له كإنسان

يبحث عن الحقيقة في حيرة وتردد من واقع متشابك مختلط حوله فسألها في تردد :
- هل مازال حب المعرفة فقط هو دافعك للسؤال والبحث عن الإسلام ؟
- ليست المعرفة فقط ولكنها الحقيقة
- أي حقيقة ؟
- حقيقة الإسلام من المسيحية واليهودية ..لقد تأكدت أن من أرسل عيسى و موسى هو الذي أرسل محمدا، و ذلك يعني صدق رسالته التي هي من الله...
سكتت ماري تُفكر ثم تابعت :
- عرفت الآن أن محمدا رسول الله
قال أحمد و هو يحاول أن يُخفي مشاعره و سعادته التي بدت من عينيه :
- إذا كانت تلك هي الحقيقة التي آمنتِ بها فعليك الالتزام برسالته لأنها من الله
- سألتُ عن الصلاة في بداية تعارفنا و قلتَ أنه يصعب علي معرفة التفاصيل .. هل الآن يمكنني أن أتفهمها
ابتسم أحمد : هل تبغين أن تصلي لله كما يصلي المسلمون؟
- نعم إنني أؤمن برسالة محمد وأصدقها
تملكته سعادة غامرة و هو يسمعها تسأل بشوق كطفلة صغيرة وقال : هناك أمر هام قبل الصلاة ..الشهادة
و بدأت ماري تقول :-
أشهد أن لا إله إلا الله .....
قال أحمد مقاطعا :
- اغتسلي أولا ثم انطقي بالشهادة
- لقد اغتسلتُ في الصباح .. ألا يكفي ؟!
كان أحمد سعيدا جدا وهو يحاورها معلما وكأنها ترى الدنيا لأول مرة و كلما علمها شيئا جديدا فرح أكثر و صارت إلى

نفسه أقرب و أقرب حتى شعر أنها جزء منه عاد إليه بعد طول افتراق .

بعد بضعة أيام اختفت ماري ولم تأت الجامعة أو تُحادثه عبر الهاتف أو تتلقى مكالماته ..حاول البحث عنها و أخيرا عرف أنها تركت نيويورك .. إلى أين؟ لا يدري. و رغم حيرته لاختفائها لم يفعل الكثير بعد رحيلها، ربما لأنه يدرك أنها في مرحلة فارقة أو تواجه تحديات لتحقيق غايتها في الاتجاه إلى الله كما اعتنقتها. كان يذكرها كثيرا إذا ما مرّ بطريق سبق و أن سلكاه معا. كان يذكرها و يفتقدها كثيرا مرة كافتقاد صديق كان صادقا معه و مرة افتقاد حبيبة صار شغوفا بها لتكمل طريق الحياة معه، لكنه فضل الانتظار حتى تعود، فما دامت بخير هو مطمئن و إن لم تكن معه.

الفصل السادس

التحقت نورا بكلية الطب و التحقت زهرة بكلية التجارة شعبة اللغة الانجليزية بنفس الجامعة. لم تشعر زهرة بالأسف لعدم التحاقها بكلية الطب لأنها ليست حلمها و لكنها أيضا لم تشعر بسعادة بكليتها التي التحقت بها ، أما السيد على والد زهرة فلم يشعر بالأسف لأن زهرة لم تُحقق رغبته في التحاقها بالطب لأنه يعرف أن دراستها في كليتها ستحقق لها فرصة ممتازة في الحصول على عمل بأجر ممتاز أيضا بمجرد تخرجها .

قبيل بداية العام الدراسي سافرت الطالبتان للدراسة في أحد المعاهد الخاصة لتتمكنا من استيعاب دراستهم بسهولة .. و التحقت زهرة بمعهد لدراسة الحاسب إلى جانب الدراسة للتميز . في البداية، شعرت الفتاتان في وقت ما إنهما غير قادرتين على الجمع بين دراستهم و دراسة أخرى جانبية فقالت نورا :

- كان أخي أحمد يتعلم اللغات مع دراسته في الطب وأنت تعلمين كم هو متفوق ومتميز، أحاول أن أقتدي به.
- لكني لا أعرف كيف أوفّق بين كل تلك العلوم .. أشعر بالإجهاد و الملل

قالت نورا بفخر يشوبه الشوق والألم :

- أعلمك كما علمني، لكن ما نواجهه من صعوبات أمر معتاد لأننا في البداية، مع الوقت ستصير الأمور كلها أيسر و نعتاد واجباتنا فنتمها دون جهد كبير.

ترددت زهرة وصمتت وقتا طويلا قبل أن تقول :

- ما أخبار القضية ؟

قالت نورا و قد بدا عليها أنها لا تُريد أن تذكر ذلك الموضوع :

- جلسة الحكم بعد شهر .

لم تكن نورا تتحدث عن ذلك الجدار الذي انهار داخلها بعد

هروب أخيها، لم تتحدث عن الثقة التي انهارت في قلبها في كل ما يحيط بها، و لا تذكر أبدا إحساس الخوف الذي تملكها منذ رأت والدها و هو يرجو أحمد أن يرحل خوفا عليه، كانت تظن أن الفضيلة وحدها كافية أن تحمينا من أي خطر، لأنها لم تعي بعد أنه حتى الفضيلة لها أعداء يكرهون وجودها و يتأذون من انتشارها لأنها تفضح شرورهم، تكشف نقصهم.
اهتزت كل القيم داخلها و لم تعلم كيف تثبتها.
هل حقيقةُ أنَّ الحق فقط هو ما يبقى و ينتصر في النهاية، ما زالت غالبة في عصرنا أم أن الظلم و بطش القوة هو ما يسود؟

كانت الأيام تمر ثقيلة في منزل الحاج عبد الجواد ، فابنته نورا تعيش بعيدا عنه لأول مرة ..و لا يملك وقتا لزيارتها كما يجب . و عُمر أصيب بحالة من اليأس والإحباط لما يمر به أحمد مثله الأعلى و قدوته. و زوجته صارت تبكي وتولول معظم وقتها قائلة :

- آآآآه يا ولدي لما قلت لاا و ما قلت ال أه.....

كانت زهرة تشعر بكل معاناة الأسرة و تتألم أيضا لكنها غير قادرة على التعبير عن حزنها بأي طريقة ..كانت تشعر برغبة في البكاء عندما تقف في شرفتها ساعة الصباح ولا يأتي أحمد ..و زاد ألمها بإحساس من الجمود في حياتها و إحساسها ؛ صارت تشعر أنها بلا حُلم أو هدف . لقد صارت لا تتحدث إلا بالأرقام والنسب و هي لا تحب أن تكون كذلك.
فكرت في التحويل لكلية أخرى، لكنها تخشى الإفصاح عن ذلك لوالدها. تشعر أنها تفكر في فعل جرم وليس تحقيق حلم . تعتقد أنها قد أخطأت بعدم التحاقها بكلية الطب والتصحيح الوحيد لهذا الخطأ هو تفوقها في كلية التجارة و ليس التفكير

في التحويل إلى دراسة أخرى قد لا تُرضي والدها أبدا . أيضا، لا يمكنها التعبير لوالدها عن فكرة غير مكتملة في عقلها، عن هدف غير واضح تريده، لكن أليس من المفترض أن يساعدها والدها أو أحد الكبار في تحديد حلم و هوية لها، أليس من المفترض أنها قررت منذ سنوات و أدركت جيدا ماذا تريد؟ لكن كيف تحدد و تدرك ما تريده نفسها و قد رسم لها غيرها خط سير لتتبعه في حياتها دون أي انتباه أو استماع لرغباتها أو ملاحظة مواهبها؟

الفصل السابع

أقبلت تبحث عنه بعينيها، أصبح جزء هاما في حياتها، جزء كان الدليل لها، لحياة أتت لنفسها بكثير من الطمأنينة. اتجهت نحوه مسرعة حيث اعتاد أن ينتظرها و دون إلقاء أي تحية بادرته قائلة،

" هل تقبل اعتذاري لتغيبي عنك الفترة السابقة ؟"

قالتها ماري لأحمد عندما فوجئ بها أمامه في الجامعة، بعد تغيبها عدة أسابيع ؛ عندما رآها ابتهج كمن يبتهج بشعاع الشمس في أبرد أيام الشتاء ، كانت ترتدي بنطلون و بلوزة أطول قليلا و بأكمام طويلة و ياقة مغلقة كانت مختلفة عما اعتاد أن يراها و كانت تخفي شعرها بحجاب يظهر معظمه. ود لم مد يديه ليعلمها كيف تُحكم ضبطه، لكنه عفَّ عن ذلك لأنه يدرك أنه ليس من حقه. و لشدة ما بدا له من اختلاف فيها، قال بنبرة السؤال :

- ماري ...؟

و جلست إليه تُخبره عن أسباب غيابها الطويل . قالت أنها حينما تركته المرة الأخيرة ذهبت إلى والدها ، والذي يعمل مديرا لإحدى الشركات في مبنى التجارة العالمي؛ لتخبره أنها قد اتخذت الإسلام دينا فثار والدها و غضب و هددها بقطيعتها و حرمانها من الأموال التي يعطيها إياها.. و أنه عليها أن تعلم أنها إذا أرادت حريتها، كي ترتكب بها حماقة فعليها أن تحصل على قوتها بنفسها و أن تستقل بحياتها بعيدا عنه .. و طلب والدها من أخيها مايك أن يقاطعها أيضا و لكن مايك حاول أن يصلح الموقف قائلا لوالده:

- ربما حاولت اعتناق الإسلام بتأثير من الشاب العربي الذي صادقته مؤخرا .

فقال الأب :- إذا لتقطع علاقتها بهذا الشاب

اعترضت ماري فتدخل مايك و قال : ليكن الانقطاع مؤقتا و بعدها تقررين ما تشائين

وافقت ماري على الاقتراح الأخير الذي قاله مايك ظانا أن ماري ستنسى الإسلام وأحمد بمجرد الانقطاع عنهم و الابتعاد لفترة .
مضت ماري ثلاثة أسابيع على شواطئ فلوريدا لم يتوقف تفكيرها بالإسلام و ما عرفته عنه ساعة واحدة و كأنها قد اتخذت من تلك النزهة فرصة لتتبين حقيقة و رسوخ اليقين بقلبها ، لا لتنسى و تلهى في أشياء أخرى . و عرفت أنه ليس أحمد من دفع بها للإسلام و لكنها من كانت تبحث عنه منذ بدأ عقلها بتفَهُم حقيقة الأمور و أن أحمد كان الضوء الذي رأت به الحقيقة، فقررت العودة إليه ثانية. كانت تتحدث بثقة و قوة لا تتناسب مع فتاة ثرية تخلت عنها عائلتها، و لكنها كانت كضال وجد ضالته فاطمئن و ما عاد يبالي لشيء في الكون بعدها.
كان يستمع إليها و يفكر فيما واجهته عندما قررت أن تعارض إرادة أكبر، إرادة والدها، فكان جزاؤها الحرمان و القطيعة ، أي حرية في حياة ماري؟. أي حرية يملكها شخص حينما يواجه عقوبة لمجرد أنه حاول التعبير عن أفكاره؟.. عرف أن ما تملكه ماري من حرية لا يختلف كثيرا عما يملكه ، اختلاف واحد فقط بينهما، أنها تعيش محمية في كيان قرر أن يظل متماسكا ، يحمي قوة من يأخذ منهم قوته، يحمي العلماء لأنه يعلو بهم، يحمي القانون لأنه الميزان الوحيد الذي يحفظ القوة و العدالة، أما عن حرية الفكر فيبدو أنها غير مكفولة للجميع على وجه البسيطة.

و بعدما أتمّت حديثها سألها أحمد :
- و ماذا ستفعلين الآن ؟
- سأبحث عن عمل مع الدراسة ؟
و تحركت في أحمد غيرة الشاب العربي تجاه محبوبته و ثار

في قلبه الخوف عليها و قال بصوت مشفق ..
- تعودت الرفاهية ..كيف ستعملين ؟
- سأبحث عن عمل .. أي عمل أحصل منه على نفقتي.
تناسى أحمد عادات الغرب وطبيعة شعبه و ثارت فيه الحمية العربية و تخيل ماري تعيش وحيدة وقد تصيبها ضائقة مالية و لا تستطيع اتمام دراستها . اعتادت الحياة بصحبة أسرتها كيف ستعيش وحيدة .. من يعتني بها، و تساءل في نفسه "" كيف يترك رجل حر حبيبته تصارع الحياة وحدها ""
ثم قال لها :

- ماري أنت غاية في الرقة لا يمكنني أن أتخيلك تعيشين حياة صعبة .. أو لست معتادة عليها
- يجب أن أكون على قدر المسئولية ..لقد اخترت و يجب أن أتحمل عواقب اختياري، لا علاقة لك بالأمر.

تمتم أحمد " دائما ما يكون ثمن الحرية ولو في نطق كلمة غاليا " و تابعها بعينيه و هو يقول:

- إنني أحبك .. أقصد أبتغي الزواج بكِ.

أصابت الكلمات ماري بدهشة كبيرة واضحة كالشمس في عينيها ولم تعطي أحمد ردا غيرها .
لم تكن تتوقع طلبه و ربما لم تفكر فيه أكثر من صديق، لم تنتقل مشاعرها معه بعد إلى اتجاه آخر. السبب في ذلك أن انتباهها معه كان موجها فيه لناحية أخرى و هو إمرؤ مسلم يأخذ بيدها للحقيقة ، عقلها كان منشغلا بأكمله في معرفة الحقيقة ، التي كان هو عنوانا لها عندها.
لكن طلبه أثار ما كان خاملا داخلها و أخذ انتباهها إليه فهي فتاة في بداية العشرينيات و هو في نهايتها، كلاهما يعيش في غربة، صارت كالغريبة منذ أسلمت و قررت عائلتها أن

توكلها لنفسها، و هو مطارد من وطنه وحيد بدونها.

قالت و كأن عقلها لم يتوقف عن التفكير بعد:
-هل تنزعج إذا أخبرتك أني لم أفكر في ذلك، أقصد التفكير في أننا نكون زوجين رجل و امرأة، لا أنكر أنك صديق جيد...
ظل ينظر إليها صامتا، تاركا إياها تُخرج كل مكنونها، بهدوء كان يسمعها و هي تصمت هنيهة ثم تعاود الحديث و كأنها تفكر بصوت عالي، تتبعه بنظراتها متأملة:
- لستَ سيئا بل إنك صديق جيد لكني أرى أن الوقت باكر جدا للتفكير في الزواج، علاقة دائمة كهذه تحتاج لتفكير طويل قبل أن تبدأ، كي لا تكون مهددة بالدمار.

- هل لديكِ المزيد من الأسباب، أم هذه أسبابك فقط؟
أطرق رأسه و هو يقول:
- أنتِ أيضا صديقة جيدة، لكننا كلانا أصبحنا في حاجة أكبر لوجودنا معا، هذا ما أراه، و على كل حال فمعك الوقت للتفكير.
لاحظت ما أصابه، لاحظت حزنه و شعرت ألمه، لكنها لم تهتم. و انصرف كل منهما في اتجاهه. هو كأنه فقد الكائن الوحيد الذي اطمأن إليه في غربته و هي بين دهشة و تَردد، لما سأله إياها، إنه يريد الزواج بها ليتحمل مسؤوليتها يخشى عليها أن تُرهَق فيما لم تتعود عليه في حياتها.
إنه لم يطلب منها ذلك أو يُلمح لها بأي صورة أنها تعجبه كفتاة. و تذكرت ما تسمعه عن رجال المسلمين الذين يضربون نساءهم، كل ما كانت تبحث عنه مع أحمد هو الحقيقة ، و قد عرفتها، هي لا تريد الزواج بمسلم لأنه يضرب زوجته، هذا ما عرفته عنهم، فلتصلي لله و لتعبده، و هذا

يكفي و لو مؤقتا.

لم يصبر أحمد حتى يلقاها في اليوم التالي، فهاتفها راجيا:
- ماري، هناك الكثير ما زلتِ لا تعرفينه عن الإسلام؟ لا يجوز لك الزواج برجل غير مسلم؟
- لا أريد الزواج من رجل يضرب زوجته حين يختلفا؟ هذا غير إنساني
- محمد عليه الصلاة والسلام لم يضرب أي من زوجاته.
- لكن المسلمون يضربون زوجاتهم، من أعرفهم منهم أكثرهم غير سعداء، الرجل المسلم متسلط مع زوجته يعاملها كعبد.
- هذا ليس الإسلام، هذا جهل من بعضهم، وهم ليسوا خيارنا
- لم أكن أبحث عن زوج ، كنت أبحث عن الحقيقة، عن الله و وجدت غايتي.
- هناك بعض الحقائق ما زالت خافية عنكِ، كثير من الأمور إن عرفتيها ستتغير نظرتك.

كان يعتقد أنها لن تستطيع مواجهة الحياة وحدها، ظنها كامرأة وحيدة في مجتمعه، لم ينتبه أنه في عالم مختلف، عالم ينشغل فيه كل شخص فيما يخصه فقط. و أن ماري قوية بما يكفي لتتحمل نتيجة اختيارها.

ربما ودَّ لو يراها في حاجة إليه ليكتمل إحساسه بالرجولة في حمايتها أو ربما وجد أنه بحاجة لأن يشعر أن هناك من يحتاج إليه فيطمئن إلى أن آخر يهتم به و بوجوده. و ربما اطمأن هو بها فخشي أن تبتعد. جمع كل ذلك في كلمة واحدة هي، أحبك. و قرار واحد هو أريد الزواج بكِ.

قرار هام تتخذه و لا تدري غالبا دافعك الحقيقي، لا تدري ما وراء انجذابك نحو آخر فتضع الحب مُسمى، لتخفي به حقيقة غامضة تختفي في أعماقك تجاه الآخر ، حقيقة لا تتضح إلا بعد أيام طويلة و مواقف كثيرة.

.....

كانت المرة الأولى التي يبتسم فيها عُمر منذ فارق أحمد، عندما قال له الأخير عبر الهاتف أنه ينوي الزواج من زميلة أمريكية تدرس معه. لم يسأل عمر عن أي تفاصيل حول الفتاة وكيف سيعيش معها فقط، لكنه عرف أنه طالما فكر أحمد في الزواج فهو بالضرورة يشعر بالراحة والرضا داخل نفسه و لا يحمل في صدره شعور السجين الهارب.. الذي يجعلهم يعانون لأجله كل حين ، كما أن تفوق أحمد في دراسته و عمله بالخارج أشعرهم بسعادة كبيرة لأنه لن يفقد تميزه ونجاحه رغم غربته.

غمرتهم سعادة كبيرة في ذلك الوقت ، لكن أم أحمد تذكرت جلسة الحكم صباح غد فقالت بصوت حزين:

- آه يا ولدي آه لما قلت لا و ما قلت آه ..اه يا ولدي اه

والدة أحمد مقتنعة تماما أن ما أصاب أحمد من اتهام بالقتل وهروب للخارج سببه عدم تجاهل أحمد وصمته عن خطأ يراه و خاصة زراعة عائلة الطواحني للبانجو وتجارتهم به ، لقد عرف ذلك من بعض المدمنين الذين أرادوا العلاج

فأخبروه ممن يشترون المخدرات و أين يتجمعون لتناولها و على ذلك تم القبض على حسني الطواحني ومصادرة أمواله .

قال عُمر و هو يحاول أن يرسم ابتسامة على وجه أمه :

- غدا سأذهب إلى المحكمة لأسمع بأذني القاضي وهو يحكم ببراءة أخي ..و أرى عائلة الطواحني وعملهم السيء يرتد عليهم بحسرة تقتل قلوبهم .

نظرت الأم إليه نظرة رجاء و قالت :

- ياااارب

في ذلك الوقت كانت زهرة توجه رشاش الماء نحو شجرة زرعتها في الحديقة منذ عدة أشهر ؛ أعطت لها اسما مثلما تفعل مع معظم الأشجار التي تزرعها ؛ لكنها هذه المرة لم تخبر أحدا به و اكتفت أن تقول عنها شجرتي . إذا روتها قالت رويت شجرتي أو كادت شجرتي أن تزهر . إنها الشجيرة الوحيدة التي أضافت لها ضميرا لتنسبها لنفسها . كانت قد غرست نبتة باسم نورا بعدما عرفتها و أخرى باسم روزان بعدما بدأت تتضجر من تصرفاتها. اختارت لروزان نبتة ذات أشواك و كل مرة كانت تحاول زهرة اقتحام النبتة دون أن تصيبها الأشواك. لكنها لم تفلح ولا مرة فكانت الاشواك تُدمي يدها دائما .

في ركن من الحديقة اتخذته زهرة تبني فيه نموذجا لكل إنسان يؤثر فيها سلبا أو إيجابا بالنبات حتى النباتات رأت فيها الطيب والخبيث .. المستسلم والمتسلط .. الباكي والضاحك و المتعقل والمندفع . كل تلك النماذج كانت في ركن صغير و كل نموذج منها يحمل اسم أو حرف ليُذكرها بصاحبه إلا الشجرة التي كانت ترويها أضافتها إليها بضمير .قالت عنها ""شجرتي" "لذلك فلا

أحد يعرف صاحبها لكن الجميع يوقن أنها أقرب إلى نفسها من أي شجرة أخرى.

تبرمت زهرة لرفض والدها تغيير دراستها من كلية التجارة إلى كلية أخرى لكنها كانت مشغولة بشأن قضية أحمد أكثر من نفسها .. تُرى أي حكم سيصدر؟ هل سيعود وتراه كل يوم تقريبا مثلما كانت في السابق .. أم ستطول غيبته حتى ينسى الوطن ...
و ليست زهرة وحدها من يترقب الحكم ولكنها القرية جميعا و ربما كل المدينة التي تقع القرية في محيطها .. الكل يترقب معرفة جزاء الطبيب الذي قتل مريضه أو المتهم بقتل مريضه . الطبيب الذي بدا لهم شهورا طويلة وكأنه داع أمين و مصلح راشد .

ذهب باكرا إلى مكتبة يستطيع الحصول منها على كتب تتحدث عن المرأة في الإسلام، و قبل الإسلام و ما أوجبه لها القرءان من حقوق و كيف أوصى النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالنساء خيرا. ذكر لها عن الصحابيات و حياتهن.
نظرت له متسائلة:

- المرأة كما أمر لها الدين تعيش كالملكات ، فالزوج مسؤول عنها في الإنفاق و الحماية ، مسؤول عن كل ما تحتاج، لا يمنعها العمل و يجعل لها سلطة على ما تملك من مال تنفقه كيف تشاء، جعل من حقها الخلع كما أن من حق الزوج الطلاق. كيف يعطي لها كل هذه الحقوق و يقر ضربها ؟
- أخبرتك أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يضرب زوجاته، و لا خادمه، كما أن ذكر الضرب جاء في حالة خاصة و كان الحل الأخير و غير ذلك فإن هناك اختلافات كثيرة في تفسير الكلمة.

- لكن هناك مسلمون كثيرون يضربون نسائهم و يرفعون أصواتهم عليهم بما لا يليق من القول، و ترى المرأة بلا رأي بعد زوجها.
- بلا رأي ، كيف؟ و قد سمع الله لها من فوق سبع سنوات ألا يسمعها زوجها إذا اشتكت و تحدثت؟، لقد قال خليفة المسلمين لامرأة عارضت قوله، أخطأ عمر و أصابت امرأة، هل تصبح هكذا بلا رأي؟
- طالما ما تقوله صحيح، لما نرى المسلمين على ما يخالفه؟

صمت قليلا، ثم سألها:
- هل تقر المسيحية ممارسة الجنس قبل الزواج؟

قالت بثقةٍ:- لا
فقال:- إذًا لما يشيع ذلك بين معظم من يعيشون هنا؟
قالت:- هذه ليست قواعد الدين إنها رغبات أفراد، أفراد غير ملتزمين.
قال و كأنه ينهي المشكلة :- و هذا ما يحدث تماما عندنا، ما ترينه من أخطاء أو سلوكيات خاطئة، ليست الإسلام و لكنها أخطاء و رغبات وقع فيها أشخاص مسلمون.

صمتا طويلا، و كأنهما في هدنة. يتابع كل منهما أضواء المدينة الباهرة.
لاحظ في عينيها بريقا لم يعهده من قبل، فأسرع قائلا:- صديق جيد، و ثقي أنه سيكون زوج جيد.
لكنها صمتت طويلا، حتى سألها مرة أخرى:- ألا تتزوجين محمديا، سأكون معكِ مثل محمد.

و كأنها استغرقت صمتها تفكيرا في الأمر كي تعطيه قرارها قبل أن يفترقا، فقالت:- أتزوج محمديا، أتزوجك.
لم يتمالك نفسه من السعادة فأمسك بيديها قائلا:- الآن..

فابتسمت و قالت ماري لأحمد بلهجة حازمة :
- سنحتاج إلى مسكن يخصنا أولا، أنا أعيش مع صديقة و أنت لا تعيش بمفردك بل مع رفقاء.
- أنا مسؤول عنكِ
- لكني أريد العمل و الاعتماد على ذاتي .. يمكنني القيام بذلك بيسر في نفس الوقت الذي أتابع فيه دراستي
- في الإسلام يكون الرجل مسؤولا عن عائلته ماليا .. ذاك حقك علي ؛ كما أنه يمكنني أن أتدبر أمري بيسر

و جدت ماري أن الجدل في ذلك الموضوع لن يأتي بجديد في الوقت الراهن فقالت :
- لما لا ندع هذا الامر ؟ .. نعود إليه بعدما نعرف قرار المحكمة في قضيتك اليوم .

كان أحمد ينتظر حكم القاضي و يتمنى أن يكون حكما ببراءته .؛ فرغم ثقته أنه لم يفعل شيئا و أنه حتى لم يقتل الرجل خطأً حتى توقع عليه أي عقوبة إلا أنه كان خائفا و يتوقع الشر.. يتوقع أن يتحول الأمر عليه لا له سواء أكان انتظر في الوطن أو هاجر منه .

كان يتوقع أن تنزل عليه من الناس عقوبة، ليس لأنه أذنب و لكنه قاوم وحده و لم يسانده أحد و كانت القوة التي قرر مقاومتها أكبر منه . صار مصير رجل في كلمة تخرج من بين شفتي رجل آخر.. لم يتعارفا ولم يتقابلا، واحد يقرر من أوراق مكتوبة مختومة والآخر لم يستخدم أكثر من حقه في النهي عن منكر رآه..

حاول تغيير المنكر ليكون قويا، ليكون حرا في اختيار واقع نظيف يعيش فيه.. رفض أن يكون ضعيفا فقال "لا " بلسانه ويده معا . قال" لا" لشيء لا يؤذي نفسه ولكن من حوله.. قالها لأجل

الآخرين ؛ لكن كيف يقول لا لمن بدا أقوى منه و ربما أقوى الجميع كيف يقول لا دون أن يفكر في رد فعل من يقول له "لا". لقد ظن أنه حر، لذا قالها للقوي عندما أخطأ.. لقد خُدع أحمد بظنه الحَسن .. خُدع لاعتقاده أنه حر و أخطأ حينما لم ينتبه إلى أن الحرية للأقوى دائما.
يبدو أن أحمد قد أخطأ و أنه كما قال عنه أحد أفراد عائلة الطواحني "طبيب صغير يكبر على حساب أرواح البشر ". هل يمكن أن يفشل في تقييم نفسه إلى هذا الحد ؟
لكن إن لم يكن أحمد القاتل فمن الذي قتل ؟ من الذي وصل بالسم الى أمعاء الحاج فرحان ؟ يُقال أن هذا السم يوقف القلب بمجرد وصوله إليه. لقد مات الرجل نتيجة توقف مفاجئ للقلب و هذا ما قاله أحمد لوالده عندما عاد من عنده "الرجل مريض بالقلب و قد توقف قلبه قبل وصولي إليه.. حاولت انعاشه لكن لم تفلح أي الطرق ".
و عندما اتهموه قال لوالده أيضا " أنه لم يلاحظ أي آثار لأي شيء سائل ابتلعه الرجل .
اعتمد دفاع أحمد على أن المادة الموجودة في الفم والأمعاء لم يثبت وجودها بالدم وأنه لكي تسبب الوفاة لابد وأن تظهر آثارها في الدم أيضا أو في أنسجة جسد المجني عليه، وعلى ذلك يجب أن تسقط التهمة عن أحمد . لأن إصابة رجل تخطى السبعين و يُعالج منذ سنوات من أمراض القلب بأزمة قلبية .. أو نتيجة لتوقف مفاجئ في القلب أمر لا يدعو للاشتباه في جريمة قتل. و طالب المحكمة بإعداد تقرير أكثر تفصيلا حول أسباب الوفاة و عمّا إذا كان تركيز المادة السامة التي وضعت في فمه تم امتصاصها عبر خلايا الجسم لتصل إلى القلب أم أنها أضيفت بعد الوفاة.

و تم تأجيل الحكم إلى أن يتم التأكد من عدم وجود المادة السامة

في دم الميت و أنسجته.
كان من ضمن حضور المحاكمة د/والي الطبيب الشرعي يشاهد ما سيحدث مع الطبيب الذي كتب له التقرير ناقصا كي يُحقق مصلحته من ذلك . انتبه د/والي وهو يسمع قرار القاضي بضرورة تحليل أنسجة الميت للتأكد من وجود المادة السامة به من عدمه و نظرات عائلة الطواحني تتبع الطبيب الذي لم يزيف بالكذب و لكنه اكتفى بأن يقول الحقيقة ناقصة . لتقرر الاحوال ما يُفعل بعد قرار القاضي. نظر حسن الطواحني نظرة حادة إلى د/والي يعني بها أنه خدعهم و خرج حسن الطواحني من القاعة وأشار ل د/والي أن يتبعه بالخارج و هناك دار حوار حاد بينهم بدأه حسن الطواحني قائلا:

- أخبرتك أن تضع تقريرا يسجنه ما هذا الذي يطلبه القاضي ..لما يطلب تحليلا آخر
- لأني انتقصت الحقيقة كي يحدث ما تريدون
- لكنهم يطلبون الحقيقة كاملة الآن.. ماذا ستفعل ؟
- لا يمكنني أن أفعل المزيد
- و ما أخذته مني ؟ لقد اشتريت نفسك وذمتك بمالي و إن لم تنفذ ما أريد، سأقتلك

كان حسن الطواحني يمسك بياقة سترة د/والي وهو يقول جملته الأخيرة فرفع د/والي يديه عنه وقال :

- إنك لم تشتريني أو حتى جزء مني لقد قدمت لك خدمة وأخذت ثمنها و ليس لك شيء عندي ..و عدّل من زيه و هو يتابع :
- يكفي تلك الفترة من القلق الذي عاش فيه الشاب تلك الشهور والشهور الآتية حتى يتم نظر القضية مرة أخرى ليتم تأديبه

قال الطواحني بغيظ :

- لكن هذا لم يكن اتفاقنا
- و لم يكن اتفاقنا أن أزيف الحقيقة أيضا

- سأقتلك إن لم يُقتل هو
- لن تستطيع إيذاء ظفر مني، يمكنني النيل منك ولو بعد وفاتي
قال الطواحني ساخرا :
- كيف ؟ هل ستطاردني أشباحك
- لا بل ستطاردك الحقيقة التي عرفها ثالث غيرنا
كان د/ والي قد أخبر ثالث بالحقيقة حقا و لكنه أيضا أخبره بالحقيقة ناقصة . أخبره أن هناك شخص هدده بالقتل إن لم يكتب تقريرا ضد د/أحمد في قضية مقتل فرحان الطواحني و لكنه لم يعمل بالتهديد و كتب نصف الحقيقة في التقرير وأخبر محامي المتهم أن يُطالب بالنصف الآخر أثناء المحاكمة حماية لحياته و لم يكن ذلك الثالث غير محامي أحمد نفسه . د/والي مقتنع دائما أن نصف الحقيقة ليس كذبا و إنما ذكاء فمن يحتاج الحقيقة كاملة فليسعَ إليها و من رضى بها ناقصة فقد رضى بحاله . والرضا في حد ذاته أمر مريح .

استطاعت ماري الحصول على عمل كمحرر في مجلة علمية، و تمكن أحمد من استئجار سكن خاص بهما، و تم الزواج في المركز الإسلامي. اشترى لها خاتما و أعدا مسكنهما بأبسط احتياجاتها. كان الأمر أبسط كثيرا مما لو تزوج أخرى في وطنه.
لقد اجتمعا كروحين التقتا فاتفقتا فقررا البقاء معا. ضيوف الزفاف كانوا بعض من معارفه في المسجد و رفاقهما في العمل و الدراسة. اجتمع الجميع في حديقة عامة و بهجة كبيرة لوقت لم يتجاوز الساعتين، ثم انصرف كل إلى حاله، ورحل الزوجان لبيتهما.

جميلة الحياة حين لا تقتحمها تفاصيل لا تعني إلا إخفاء بهجتها. أثقال نُحملها فوق كاهل أحبابنا لتكون مجرد استعراضا بلا نفع و لا غرض غير التظاهر الكاذب بالغنى. مجاملات و نفاق لا يزيد افتعالها في القلوب إلا شقاء، و يزيد الحياة عناء فوق عنائها.
جميل من البشر حين يكون مبدأهما الأول من الزواج الألفة و المودة، لا اقتناص الحقوق و تضييع الواجبات. أن يتزوجا ليسكنا معا و تسكن نفسيهما بعيدا عن القلق و الهموم، لكن أين كل ذلك مما يحدث في وطنه.

"الحمد لله.. الحمد لله رب العالمين "، قالها أحمد و قد تحول إحساسه من يأس إلى أمل فما قيل له عن رؤية المحامي في الدفاع منطقي جدا ولو تحققت العدالة فيه لتحققت براءته قال والده :

- لا تقلق بُني ..اطمئن الحق لا يضيع مهما مرّ الوقت. المحامي يطمئننا و يؤكد لنا البراءة بإذن الله لا تقلق

- متى أعود يا أبي ؟ تزوجت، أريد أن ترى زوجتي أرضي و منبتي.. وأتمنى أن تضع أول مولود لنا على أرض وطني.

- اصبر يا ولدي ..فظهور البراءة أو تحققها لا يعني العودة إلى الوطن لكن الآن نسعى للبراءة من أجل شرفك وسمعتك بين الناس

كان أحمد يثق في معرفة والده بأخلاق وطباع عائلة الطواحني . و كان يثق في حب والده له وخوفه عليه؛ لذا فقد سمع ما يقول موافقا و تفهم أنه عليه أن يُرتب حياته على البقاء أكثر من العودة على الأقل في الوقت الحالي. وأن يشكر

ربه الذي رزقه من يؤنس غربته.

لم يكن والد أحمد يدرك أن ابنه يواجه تهديدا آخر في البلد الذي هرب إليه . فلم يكتف السيد توماس والد ماري بقطع امداداته المالية عن ابنته عندما قررت الزواج من الشاب العربي و لكنه ذهب إلى أحمد حيث يعمل ليهدده قائلا :

- أعرف ماذا تبغي من علاقتك بابنتي ..و لكنني سأمنعك من الاقتراب منها
- سيدي.. أعتقد أنك تعيش في مناخ فيه الديمقراطية تحكم كل جوانب حياتك و لذلك فأنا أذكرك بأنه من حق كل إنسان أن يختار حياته.

صمت السيد توماس ولم يُعط ردا غير نظرة ساخطة، فتابع أحمد قائلا :

- سيدي ..لقد ربيت ماري حتى صارت شابة رائعة في كل شيء و تستطيع تحمل المسؤولية بشكل جيد و تتخذ قراراتها بعد تفكير متعمق ليس بشأنها فقط ولكن بشأن ولاية بأسرها لو قُدر لها ذلك ..سيدي ابنتك حرة وتستطيع أن تُقرر مصير حياتها معي كيفما تشاء. كان يتحدث وهو يثق أن من يريد الحرية يقتنصها من الظروف و المجتمع ومِن كل من وضعوا لها حدودا في حياته.

ظل السيد توماس يستمع لأحمد في غيظ مكتوم و رغم ذلك انتظر حتى أتم حديثه، ثم قال له :

- لقد حذرتك ولو أصاب ابنتي أي أذي و لو حزن بسيط يُطفئ بريق عينيها .. لن تكفيني حياتك، أعلم أن حياتها معك مغامرة و سيأتي وقت و تملها أو ترهق منها، و ستعود حيث كانت، لكن بين هذا و ذاك فأمنها مقابل حياتك عندي.

يعمل السيد توماس بالتجارة و إدارة الأعمال و هو من المتعصبين في الغرب ، وقد غضب لتحول ابنته عن دينها، و استشاط غيظا إقرارها الزواج من عربي. رأى السيد توماس في النهاية أنه من حق ابنته كإنسان حُر أن تمر بالتجربة؛ واثقا أنه يملك القوة التي لا يملكها ذلك العربي و التي ستجعل فتاته تعود إلى حياتها الأولى معه ولكنه خشي أن يكون ذلك العربي الذي تزوجته مجرد فخ وقعت فيه ...!!!

الفصل الثامن

يوم شاق قضته زهرة بين محاضراتها في الجامعة والدروس

ضيف لم يأت، ل هناء منصور

الإضافية التي تتعلمها في اللغات والحاسب. إنها تعمل بلا توقف و تجتهد في المذاكرة و تحقق التفوق و كل ذلك ليس من أجل النجاح لأنها لا تعرف ماذا تريد من كل ما تفعل .
فالنجاح مرتبط بالسعادة في تحقيق التفوق و ليس بالعمل المتوالي للهروب من أفكار نشعر بالضعف عند مواجهتها .
كانت تقف في الطريق تنتظر سيارة و كل تلك الأفكار تدور في عقلها . فتقدمت نحوها زميلة تدرس معها قائلة :

- لقد تأخرنا اليوم عن المعتاد ..و أرى أنه من واجبي أن أقوم بتوصيلك .

قالت زهرة معتذرة :

- أنت أيضا تأخرتِ ..لا داعي لتأخيرك أكثر بسببي. سأذهب في تاكسي لتصل كلانا في موعده ... أشكرك على الاهتمام

قالت الفتاة وهي تتجه نحو سيارتها :

- تعالى اركبي ..سأقوم بتوصيلك ..لما تتعاملين بهذه الطريقة ؟؟

تابعت الفتاة بلهجة حازمة:

- اركبي ..ماذا تنتظرين ؟
- لم تكن زهرة تعرف شيئا عن زميلتها سوى أنها زميلتها، وجها تراه كل يوم في الجامعة وتصادف أن تراه أيضا في دروس الحاسب واللغة حتى ألفته أو ألفت رؤيته . أما الفتاة فهي تعرف الكثير عن زهرة فهي تعلم أنها تعيش في حي قريب من الجامعة ولن يستغرق توصيلها وقتا طويل . وتعرف أنها ليست من أهل المدينة لذا فهي تعيش في شقة مع فتاة أخرى. رأت الفتاة غموضا في زهرة و قررت اكتشافه لكنها لم تجد فرصة للاقتراب منها فعرفت عنها من الزميلات. ركبت زهرة مضطرة مع الفتاة و ما أن وضعت قدماها داخل السيارة حتى قالت :

- أشكركِ
- إذا فأنت تشعرين أني قدمت لكي معروفا .. واضح جدا أنك مرهقة وفي حاجة إلى الذهاب للمنزل سريعا، لكني لا أريد شكرا فنحن زميلات و أخوات
- لم أعرف اسمك .. أنا زهرة و أنتِ؟
- سمر .. سمر الطواحني

كانت السيارة لم تتحرك بعد و زهرة تسمع اسم صاحبتها الجديدة ، فأصيبت بدهشة كبيرة جعلتها تشعر أن الوقت لا يمر أو أنه توقف تماما و لا حظت سمر ما حدث فقالت :

- ماذا أصابك ؟

أجابت زهرة بصوت مبحوح:

-لا شيء .. أنا فقط .. أشعر بالإرهاق

أوحت زهرة إلى نفسها ان الأمر كله لا يزيد عن تشابه أسماء أو ألقاب و إن كانت سمر تنتمي لنفس العائلة.. ما المشكلة ؟

ظهرت سمر كفتاة ذات مروءة، تعيش بعيدا عن القرية، لم ترها زهرة ولو مرة واحدة في القرية ؛ تنبهت فجأة إلى جرأتها في الحوار معها و توقعت أنها ربما تعرفها أو على الأقل عرفت اسم قريتها و تتابعت الظنون في عقل زهرة حتى وصلت بها إلى احتمال لقاء وتعارف بين سمر ونورا . وهي تعلم كم تكره نورا تلك العائلة .

لكن ماذا تفعل ؟ ليس من حقها أن تحكم الأمور بل ونتائجها لمجرد ظن قد يكون في غير محلّه .

لاحظت سمر شرود زهرة فباغتتها قائلة :

- لما لا تتحدثين ؟
- وعمّا نتحدث ؟
- أي شيء و لو عن ما درسناه اليوم .. أنت شاردة جدا ..فيما تفكرين ؟
- لا شيء

صمتت سمر برهة و كأنها تحاول تحديد أمر ما ، ثم قالت :
-علمت بتقديرك في نتيجة نصف العام .. لو تفوقت أكثر قليلا سيكون لك ترتيب في الكلية .. و ستكون فرص العمل بأعلى الأجور أمامك من كل جانب .

كانت زهرة تستمع في صمت إلى حديث سمر و كل تفكيرها في احتمال وجود علاقة بين سمر الطواحني و عائلة الطواحني في القرية .. إنها لا تجد تفسيرا لاهتمام سمر بها و معاملتها بهذه الطريقة معها إلا أن تكون فعلا سمر الطواحني .. و ليس تشابه ألقاب .
سمر فتاة جميلة أطول من زهرة قليلا يبدو أنها تكبرها إلا أنهم في نفس السنة . ترتدي زيا بين التبرج والحشمة دون غطاء للرأس و لكنه ينم عن ثراء كبير .يبدو عليها الذكاء في شكلها و حديثها أحيانا يبدو لمن يحادثها أنه يُخاطب رجلا ليس لخشونة صوت بها و لكن لحزمها الشديد في التصرف .
أعجبت زهرة بشخصيتها فقد تخيلت أن كل من يدرس الأرقام يتحول إلى إنسان جاف صلب الإحساس، لكنها تقابل الآن فتاة تبدو مرحة متفائلة وسعيدة رغم جديتها . فسألتها :

- هل كانت رغبتك من البداية هي دراسة التجارة ؟
- نعم .. أنا لا أفعل إلا ما يروق لي و همهمت ثم تابعت:
- لكني لا أفعل كل ما يروق لي .. أتفهمين ؟

ضحكت زهرة قائلة : هل تختبرين ذكائي أم خبراتي بهذا السؤال ...؟

- لا هذا ولا ذاك لا يختبر الشخص شيئا يثق فيه...ها قد وصلنا .. أليست شقتكم في هذا البيت .

ودّعت سمر زهرة و وعدتها بزيارة في وقت قريب. شُغلت

زهرة بشخصية سمر فرغم أنها تبدو واضحة بسيطة إلا أنها تشعر و كأنها مغطاة بكساء زجاجي لا يُخرج من صوتها إلا ما تود أن يسمعه الآخر .. يبدو أنها تعرف ما تريد و تعرف ما يجب وما لا يجب مما تريد. تعرف ما تحب وما تكره تعي الطريق التي تسير عليها .
أما زهرة فهي لا تدرك شيئا مما تدركه سمر عن نفسها .. هي تعرف حقا أنها لا تحب دراسة التجارة و لكنها لا تدري أي شيء تتعلمه بديلا عنها .. لم تفكر في حياتها أو أي أحلام لها أقصى من أن تحقق أحلام والدها فيها وإن تعارضت مع ميولها . لم تحلم يوما بأكثر من نجاح في امتحان آخر العام .. نجاح يرضي والدها. صارت وسيلة لتحقيق أحلامه هو وأصبحت غير قادرة على أن تحلم لنفسها ..لأنه مستحيل أن يسير شخص واحد في طريقين في وقت واحد .
لكن والدها لا يُلام عندما رفض تحويلها من كليتها لأنه كي يوافق على التحويل لابد وأن يعلم إلى أين ستحول و لماذا ؟ فمن لا يستطيع أن يُحدد طريقه يستحق أن يجد من يسوقه..!!!

الفصل التاسع

نادت السيدة فتحية أم أحمد ابنها عمر و طلبت منه أن يأتي

لها بصور أحمد التي أرسلها إليهم بعد زواجه، فقال عمر برجاء :

- ليس هناك داعي يا أمي .. ألا يمكنك أن تخرجي معي لنزور أحد أقاربنا أو .....
- افتقد أخيك كثيرا .. أعطني صورة .. أريد أن أملأ عيني برؤيته ولو من صورة

قال عمر معاتبا :- و بمجرد أن ترى عينيك الصور تجلسين باكية ساعات طويلة ..لماذا يا أمي ؟ صدقيني إنه بخير ..و سعيد مع زوجته الأمريكية الشقراء . و قد طمأننا المحامي بشأن القضية . وسيكون لك حفيدا أزرق العينين بإذن الله ...فلما البكاء والقلق .؟؟

كان عمر يتوقع أن تخفف أخباره من أحزان أمه و لكنها انفجرت باكية وقالت :

- آه يا ولدي ..تتزوج وأنت بعيد عني ولا أفرح باستقبال حفيدي منك..

و زادت في البكاء و رددت :

- آه يا ولدي آه لما قلت لا و ما قلت ال آه

اقترب عمر من والدته و قبّل يدها و رأسها في حنان قائلا :

- هل وجودي و نورا إلى جانبك بخير لا يكفي لتقاومي ألام فراق أخي ..هل سعادة أخي بعائلته و انتظاره لمولود و بشرى المحامي ببراءته لا يستطيع أن يرسم ابتسامة على شفتيكِ و لو لثواني قصيرة انظري لما يحدث من الخير أرجوك.. أرجوكِ .

كان عمر يدرس في السنة الأخيرة في كلية نظرية وكان يعلم بيقين أنه ليس من السهل أن يجد عملا بعد تخرجه.. فكان كثيرا ما يفكر في إقامة مشروع خاص يرعاه و يرتزق منه؛

لكن كل ما حوله كان يدعوه إلى اليأس والإحباط و ما كان حديثه لأمه إلا تخفيفا عنها لكنه لم يقتنع بشيء منه .. لأن وقوع الظلم على النفس ألمه لا يُمحى حتى يرفع و إن رُفع الظلم و معه الألم فذكراه لا تُنسى إلا بعد وقت طويل .

الفصل العاشر

أوشكت نورا أن تسقط مغشيا عليها و هي تروي ما حدث لها

ضيف لم يأت، ل هناء منصور

؛ فصحبتها زهرة إلى الفراش وطلبت منها أن تنام و قتا ما لتستريح ، وبإذن الله تجد الحل .
تعرضت نورا منذ بداية العام الدراسي لمعاكسات من طالب في كلية أخرى . و تدخل آخر للحماية ثم تحول علاقته بها لرغبة في التعارف أثناء إحدى الرحلات الجامعية ولأن نورا فتاة واضحة الجمال يشعر أي شاب بالغرور إذا شعر أنها التفتت إليه بمجرد نظرة. و رغم أنها كانت تعي انبهار من حولها بجمالها لكنها كانت أكثر سذاجة من أن تدرك أن أحدهم يريد بها سوءا أو أنه يصحبها لمجرد قضاء وقت جيد بصحبة فتاة جميلة .
لم تكن حريصة بما يكفي في تصرفاتها معهم فظن البعض أنها مطمع سهل و تخيلوا أنه يمكنها أن تتساهل أكثر.. كانت معجبة بإعجاب الآخرين بها، لكن من يعجبون بها ينظرون لشكلها فقط ويتجاهلون شخصية خلف هذا الجمال . شخصية ربما تستحق الاهتمام والتقدير، اهتمام حصرته جهلا منها في نظرات إعجاب و كلمات إطراء و مجاملات لها ليست أكثر من فخاخ ، تُعد لها بإحكام حتى تسقط مشاعرها أسيرة لأحدهم.

لم تفكر أن كل من يباغتها بعبارات الاطراء و الإعجاب يمكن أن يستنكر أي عيوب يصادفها في شخصيتها أملا في الفوز بصحبة ذلك الجمال ولو عدة دقائق، و ربما فكرت و لكنها تجاهلت إهمالا أو يأسا من وجود شيء جيد في العالم.

أما الشاب المقصود فكان يُدعى نادر و قد اعتقد أنه الأكثر تميزا بين أقرانه ليس في كليته فقط ولكن في الجامعة ككل و اعتقدت نورا ذلك فيه أيضا ؛ فهو ابن لشخصية ذات مركز أدبي واجتماعي مروق و يتمتع بكل ما يحلم به أي شاب في عمره من

مال وسلطة و نسب و وسامة تجذب حوله الكثيرات . في البداية كان انن كغيره لم تنجذب إليه إلا باهتمام بها كانت تحتاج إليه بعد سفر أخيها و مع بداية التحاقها بالكلية . ترك أحمد فراغ في نفسها فملأه الشخص الخطأ . حقا أن صديقتها زهرة ما زالت إلى جوارها لكن ما الفائدة.. فماذا تعرف زهرة في الحياة أكثر مما تعرف نورا؟

أبدع نادر في ثوب العاشق الواعظ، حتى ألفته و ألفت وجوده، و قليلا قليلا زالت الكلفة بينهما و بعد زوال الكلفة تتكسر الحواجز و أحيانا و في سهو منها تُكسر الحدود بدعوى حسن النية و أن الغاية نبيلة . و أنهما لا يرتكبان جرما بل يعيشا الحياة الطبيعية لسنوات شبابهما، صارت تتحدث إليه كثيرا عبر هاتفها الخاص و أحيانا عبر هاتف الشقة التي تعيش فيها مع زهرة .و تبادلا الهدايا في المناسبات الخاصة والعامة..

وخضع القلب الذي طالما عرف الالتزام إلى لين القول و حسن الكلام، في كل مناسبة كانا يلتقطان صورا مشتركة و أحيانا رسائل معطرة تختبئ في كشاكيل المحاضرات شيء.
اقتربت حتى تعلقت، تعلقت حتى باتت لا تفكر في نهاية علاقتها به ، لا تسأل أو تفكر صيغة شرعية تجمعهما، كل ما كان يهم متى سيلتقيان و أين؟ و ما الجديد الذي يحمله لها كل مرة.
كان بارعا معها ، بارعا في إدراك حاجتها ربما لأنها لم تكن الفتاة الأولى التي يتعرف إليها و ربما لأنها كانت يائسة حتى لا ترى سعادة في غيره، بعدما كسا قلبها الحزن لفراق أخيها هاربا .
كانا يلتقطان صورا سويا كعادتهما، فألقى عليها نادر سؤال ممازحا، " ماذا لو رأى والدك هذه الصور؟ هل تظنين أنه

يسعد بسعادتك فيها؟"
كان السؤال وحده دون التفكير في أسباب طرح نادر له كالصاعقة التي هبطت على رأسها ، فاستأذنته مسرعة و عادت إلى سكنها مع زهرة باكية يرهقها الحزن و القلق و الخوف.. إنها لم تفكر في ذلك من قبل.

أثار سؤاله لها مخاوف كثيرة و متنوعة ، ماذا لو علم والدها بتفاصيل علاقتها بنادر أتراه يكون راضيا ، و لو كان نادر حسن القصد، هل يرضى والدها بأن تنشغل عما أرسلها لأجله و تُصادق شابا بغير علمه؟ و هو الرجل الريفي الذي رباها أن الفتاة لا حديث لها مع رجل غير محارمها إلا لحاجة، و إن تحدثت فلتقصر و لا تخضع.
هل كان سيقبل، بصداقتها لشاب و خروجها معه و التقاط صورا بصحبته؟
ماذا لو رآها و هو في غمرة حزنه لغياب أحمد و غربته هاربا من جريمة ملفقة و هو لا يدري ما يفعله ليستطيع ابنه العودة بأمان؟ لماذا لم ترحم والدها و تكفيه بما ألمَّ به من شقاء،
و هل تخشى أن يرى والدها الصور و لا تخشى نظرة الله لها على غير ما أمرها به، تجعل الله أهون الناظرين إليها و قد قضت سنوات من عمرها لتحفظ كتابه عن ظهر قلب، كيف يتقلب قلب المرء بين ضد و ضد دون أن يدري صاحبه، كيف ننسل من أنفسنا دون أن نلاحظ حتى ننحدر إلى قاع كنا ننكره؟

قبل حلول المساء كانت سمر تتحدث إلى زهرة عبر الهاتف

:
- عندما أتحدث إليك أشعر بشيء غريب يمنحني الرغبة في الضحك ..

قالت زهرة مستفهمة :

- لا أعتقد أني أشبه مهرجا قولا أو شكلا ..
- عفوا .. و لكني أشعر و كأنني شاب يغازل فتاة فتتدلل عليه
- أنا ..! وأنتِ..! ماذا يدفعك لهذا الإحساس؟!
- أحب دائما أن نكون صديقتين ولكنكِ دائما تتخفين داخل نفسك ..لا تريدين التحدث في أي شأن معي .. هل لا تروقك صداقتي أم هذه هي شخصيتكِ.

شعرت زهرة بالإحراج من حديث سمر لأنها فعلا تخشى اقتحام سمر لحياتها و حياة نورا خاصة بعد أن تأكدت أنها من عائلة الطواحني .. نورا صديقتها منذ الطفولة ، تخشى عليها مثل نفسها . وهي قد عرفت سمر و ترى أنها تختلف كثيرا عن أقاربها في القرية، لكن ربما يكون هذا الاختلاف ظاهريا فقط أو مصطنعا لذلك لم تطمئن لها بشكل كامل، هناك حاجز ما بين عقلها و مشاعرها و هي تتعامل معها، و رغم ذلك فقد قالت لها بهدوء :

- تسعدني صداقتك جداً ..و سترين البرهان حالا.
- ماذا ؟
- هل لديك عمل الآن ؟
- لا
- إذا أنا في انتظارك في شقتنا المتواضعة
- الآن ؟
- نعم ..انتظرك..

قررت زهرة أن تتناسى علاقة القرابة بين سمر وعائلة

الطواحني و أَخْفَتها عن نورا التي بات الحزن واضحا على ملامحها نتيجة تفكيرها في مشكلتها.

سريعا حضرت سمر .. كانت المرة الأولى التي تدخل فيها شقة زهرة ونورا ..المكان صغير جدا غرفتان وصالة مفروشتان بنظام وبساطة الصالة بها كرسيان و منضدة صغيرة . وكأن لسان حال المكان يقول معذرة ..ليس لدينا وقت للضيوف .و الغرفتان إحداهما بها مكتبان والأخرى سريران و منضدة متوسطة الحجم عليها كوبين من العصير في انتظار من يشربهما و حاسوب غير مشغّل في ركن منها .
تأملت سمر المكان سريعا و سرعان ما جلست و قامت زهرة بتعريفها إلى نورا وتعريف نورا بها .
كان الغرض من دعوة زهرة لسمر هو محاولة لتجديد مزاج نورا، كي تستطيع التفكير في الأمر بصورة أكثر هدوءا و حتى لا تقرر شيئا تندم عليه.

مضت ثلاثتهم وقتا طيبا في المزاح و الحديث عن أنفسهن و غيرهم و عن أمور كثيرة تشغل بالهن،. و رغم اختلاف بيئاتهن إلا أن الرؤية كانت تتقارب في أشياء و تتباعد في أخرى، و بين كل ذلك كانت نورا تشرد حينا و تشارك حينا.

إن حال نورا كان كحال من تاه في صحراء يراقب أي أمل يظهر حوله و يمكن أن يقوده إلى النجاة.. شعرت سمر بها فقالت :

- أولا .. أثق أنك تفكرين في شيء يتعلق بماضي أو مستقبل لذلك فأنت حزينة ..و ليس من الحكمة أن نحزن لشيء مضى أو لم يأت بعد .. فالحزن لا يأتي بالحلول .. و إنما يضيع

فرص الحل .

- مستقبل وماضي ..كلهم خيط واحد ..وانفصال الخيط يعني فناء الحاضر... لكني معك أن الحزن لا يصنع حلولا ..لكن ماذا نفعل إن لم نملك الحل ؟

- كيف لا نملك حل ، لكل أزمة أكثر من حل، حسب حاجتنا لحلها، فإذا فقدتِ شيئا لزمكِ البحث عنه إذا كانت حاجتكِ إليه ملحة، أو تناسي أمره و تعويضه إذا كان بحثك عنه سيكلفك أكثر من قيمته، لكن لا تجلس إحدانا مستسلمة منتظرة أن يطرق الحل بابها و هي لا تتحرك. لا تعطي الأمور أكثر و لا أقل من قيمتها، حددي قيمتها عندك كي توقفي عن المزيد من التفكير فيها.
تنهدت بارتياح و تبادلت الفتيات الثلاث نظرات مختلفة المعاني إحداهما استفهام و الأخيرتين وقلق واستنكار .

الفصل الحادي عشر

بعدما بدأ الحمل يثقلها، قرر أن تكتفي بمتابعة دراستها و تترك

ضيف لم يأت، ل هناء منصور

عملها حتى تضع. غضبت كثيرا فلا تدرك سببا لما يطلبه غير التعنت في ممارسة حقوقه كزوج،
" اتفقنا أن نتحدث بشأن خروجي للعمل ، لا أجد سببا مقنعا لأتوقف. أعلم أنه يحق لك أن تمنعني من الخروج، لكني لا أظن أنك تفعلها"

قالت ماري لأحمد و هي تحاول أن تكتم غضبها تجاهه لأنه لم يهتم لأمر أهمها . سارع أحمد قائلا :
- سيدتي الجميلة. ما بالك بامرأة تنتظر مولودا بعد شهور قليلة و لاتزال تدرس في مجالها و زوجها يعمل ويدرس كما أنه يريد أن ينجز في دراسته أسرع حتى يحقق فيها شيئا قبل العودة إلى وطنه ... أعتقد أنه يحتاج زوجته أكثر من حاجته لمال تشاركه به الإنفاق .
صمت أحمد مدققا في عيني ماري ثم تابع :
- كيف تتحملي طفلنا والعمل و إرهاقي دون أن تتعبي؟؟
قالت ماري وكأنها تُجيب على سؤاله :

- لقد جرت العادة هنا أن يعمل كل من الرجل والمرأة على حد سواء لتوفير نفقات الحياة .
- إنها عادة و رغم ذلك كسرتها الكثيرات من النساء هنا ... كوني واحدة منهن ..كما أن نفقة الزوجة على زوجها.
-

صمت أحمد ليُعطي ماري وقتا للتفكير ، فقالت :

- أعرف حقوق المرأة، و أن الإسلام أمر لها بنصف الميراث الذي يأخذه الرجل وأن تقوم على طاعة زوجها واحترام أهله وكذلك ألا تسافر وحدها ... و أشياء أخرى كثيرة، لكني لا أرى في تفكيرك الآن إلا نموذج من تفكير شهريار في الليالي العربية الألف(حكايات ألف ليلة و ليلة)، تريد استغلال بعض مما لك علي ، لتحرمني من كثير لي.. تريد أن تحفظ طاقتي

لقدر حاجتك و البيت أما ما أحتاجه فليذهب لركن بعيد..

اغتاظ كثيرا من تشبيهها له بشهريار فهو لم يُعجب قط به، و أدار وجهه عنها. ربما وجدت به ماري حقا ما يشبهه، و يخفيه بأراء تعكس غير باطنه، فضغطت على ما يؤلمه بجرأة، لكنه تمالك نفسه و قرر عدم الإفصاح عن ضيقه، و عاد بعينيه إليها يتحدث و يسند رؤيته للدين، قائلا:

- لقد أمر الإسلام بذلك حقا ولكنه أضاف أنه ليس على المرأة أن تتكفل بسنت واحد من نفقات بيتها ، تلك مسؤولية الرجل .

بقوة قالت،" لن أدع عملي إلا إذا وجدت أنه يعيقني عن رعاية طفلي، أنا قادرة على العمل و لا أعمل من أجل المال، ذلك العمل يحقق لي سعادة و رضا لا يمكنني تحقيقهما بدونه، إنه يعطيني الثقة بأنني قادرة على العطاء و الإنجاز، قادرة على التقدم، قادرة على التعبير عن أفكاري، العمل الجاد هو الوجه الحقيقي للحرية ، فهو الوحيد الذي يمكنه أن يحققها لك."

لم يجد منطقا يقابل منطقها في معارفه، فرغم تدينه و رغم تمسكه بالفضائل و المبادئ الحسنة إلا أن أنفة الرجل العربي و إحساسه بتملك سلطته على أنثاه يسيطران في أحيان كثيرة، يسيطران فلا يخفيهما إلا قوتها، قوة علم أو مال أو نسب، و ربما كانت قوة قاهرة لغربة جبرية و حاجة لقلب وحيد يثق في محبته.

تحدثت إليه و قالت أن النبي كان في خدمة أهل بيته، و قد وعدها أن يكون محمديا، و أنه ليس عدلا على الإطلاق أن

يتقدم أحدهما على حساب الآخر، و كل ما تطلبه الحياة هو بعض النظام و التعاون في تقسيم المهام، ليتقدم كلاهما.
كان يستمع بانتباه شديد، و صار يشعر و كأن أشياء تتكسر بداخله، لا تتكسر بغرض الدمار و لكن ليحل مكانها ما هو أقوم و أفضل.
ثم قال لها و قد بدأ يتراجع عن موقفه، " ليكن الحَكم بيننا دائما هو القرءان و أفعال محمد صلى الله عليه وسلم مع أهله.
ابتسمت بسعادة بالغة و اقتربت منه لتقول بهدوء جم "لم أريد أكثر من ذلك، كن كمحمد و سأكون كخديجة".

علم السيد توماس أن ابنته أوشكت أن تضع له حفيدا، لكن ذلك لم يزده سوى غضبا و ذهب إليها يرجوها أن تنهي تلك المغامرة السخيفة التي تقوم بها و كفاها من تلك المغامرة أن يكون لها طفل والده من عالم نامي متخلف .. لكن ماري كانت ترجوه؛ في كل مرة، أن يبتعد عن أحمد و أن يدعها حرة حتى النهاية كما اعتادت منه و قالت :

- والدي لقد تعودت أن أقول لا و نعم وقتما أريد أنا و كيفما أشاء أنا .. تعودت أن أرفض و أوافق حسب إرادتي أنا ليس تبعا لرغبة خارجية تُملى علي. و نظراً لأن السيد توماس مقتنعا بكل كلمة قالتها ابنته و يعلم أنه من رباها على ذلك، وافقها بكل ارتياح مجددا و كرر دعوته لها بأن تلجأ إليه وقتما تشاء .

الفصل الثاني عشر

زاد ضيق زهرة من دراستها للأرقام والحسابات ..و لكنها

لم تعرف بعد ماذا ستدرس لو غيّرت دراستها من كلية التجارة ، أي كلية ستذهب إليها . لقد تأكدت أن دراستها للأرقام والحسابات هو مالا تحبه وما لا تستطيع أن تبدع فيه . حدثت نفسها بأنها ربما تخسر كثيرا لو استمرت في عمل لا تحبه ومازال يمكنها أن تجد ما تحب .حقيقة أنها لا تدري حتى الساعة ما تريده لكنها ستعرف وقتا ما .ستعرف إذا ما بحثت حولها و في نفسها و في حياتها .. حتما هناك علم ستحب دراسته . ليس هناك فرد يكره كل شيء . و قررت أن تواجه والدها برغبتها في ترك دراسة التجارة ، وبهدوء شديد وصوت لا يكاد يكون مسموعا قالت :

- أبي ..لا أستطيع الاستمرار أكثر في الدراسة
- أي دراسة ؟ تقصدين أنك لا تستطيعين الجمع بين دراستك في الجامعة و دراستك الحرة للحاسب واللغة؟

لاحظت زهرة منذ الكلمة الأولى أن والدها أخطأ فهمها ، لكنها لم تستطع تصحيح سوء الفهم ؛ هذا لأن شجاعتها نفذت وهي تطرح قرارها على والدها و لم يبق لديها المزيد لتُصلح المعنى الذي وصل إليه ..و هربت من استفسار والدها قائلة:

- الحياة بعيدا عن البيت متعبة وخاصة أنني أبعد للمرة الأولى إنها لا تقنع بكلمة واحدة مما قالت أخيرا لكنها لا تستطيع أن تبوح بغير ذلك . ذهبت إلى حديقتها التي زرعتها بنفسها وقالت للشجرة التي اسمتها "شجرتي " و هي تبكي لجوارها :
- لماذا لم تكوني أكثر شجاعة ..لماذا لم تدافعي عن حقكِ وهربت ..لماذا لم تقولي لا لمن ظلمك ..و تركت غيرك ليقولها عنك ..هل خشيت مصاعب أكثر ..كان يجب أن تكوني أفضل من ذلك . كيف ستكون لدي قوة و أنا أراك ضعيفة و قد كنت قدوتي؟

كانت زهرة تنظر إلى الشجرة وكأنها شخص تحاوره حتى صارت تلوم عليها ثم حولت لهجتها إلى استخدام ضمير المذكر بدلا من المؤنث و قالت :
- لا ..لستَ جبانا ..لستَ ضعيفا . لو كنتَ كذلك لما قلتها منذ البداية ؛ لكن لماذا لم تستمر على قوتك و تبقى معنا بدلا من أن تهاجر وتُعطي حصادك لغير أهلك ..ربما وجدت هناك ما يُنسيك ما رأيت هنا من سيء وجميل .
لقد تعودتُ أن ابني قراري على رأيك و الآن لم يعد لدي رأي، فكيف اصنع قرار..؟!
و استدركت فجأة ..مسحت دموعها. كفت عن البكاء و قالت :
- لما لا أكون أنا بنفسي .. لا بأحد غيري
و تجولت في الحديقة تجمع بعض الزهور ثمّ عادت إلى المنزل .

جلست نورا وحيدة في غرفتها و قد بدا عليها أنها تعاني من مشكلة كبيرة .ظنّت السيدة فتحية أنها مريضة فنفت نورا ذلك و عللت ما بها إلى اقتراب الامتحانات . سألت السيدة فتحية عمر أن يعرف ماذا أصاب أخته و رغم أن العلاقة بين نورا وعمر متقاربة نوعا ما إلا أنها لم تستطع أن تفصح له عما يدور داخل نفسها . وهربت من أسئلته بالحديث في موضوعات أخرى ..موضوعات لا تهم أيا منهما و ذلك كي لا يدري أنها في مشكلة تحتاج إلى حل . إنها تثق أنه سيلومها على ما فعلت و لن يلتمس لها عذرا واحدا و سيكون اللوم جارحا قاسيا ..

و من ناحية أخرى بدأت تقطع علاقتها مع نادر ، دون توضيح أي مبررات له، قررت أن توقف كل ما يربطها به، الحب الحقيقي لا يجلب المتاعب و تأنيب الذات و لكنه يجب أن يخلق الرضا الذي تسكن به الأرواح. و طالما أنها غير قادرة على البوح لعائلتها بما تفعله فهي توقن من داخلها أن به شيء من العيب و الخطأ.
و رغم ذلك تخلق لنفسها أحيانا عذرا لما تفعله، تحاول إقناع نفسها أنها لم تخطيء و لكن ربما تُخطي إن لم تستطع التوقف الآن. نظرت إلى عمر و هو يسألها أن تخرج من غرفتها ربما تتحسن أحوالها و قالت في نفسها :
آه لو تسمعني دون لوم أو عقاب ..لو تساعدني دون تأنيب أو عذاب ؛ سألجأ إليك دون تفكير .. لم أخطئ ولكنك لم تُعطني ضدّ ما فعلته تحذير.

ماذا إذا كان نادر يحبها حقا، و لم لا، فقد أحبته، تعلقت به بصدق أحبت و جودها معه و حديثه إليها، ما المشكلة في أن تخبر أخيها، إنه مقارب لعمرها، و ربما يشعر بنفس ما تشعر به تجاه نادر نحو أي فتاة.
لم تنتبه إلى أن أخيها لم يعارض حديثها إليه، و لكنها من رأت أن في حديثها ما يشين أو ما سيغضبه احتمالا منها، لو كانت حددت هدف علاقتها من نادر منذ بدايتها لكانت استطاعت الحديث بقوة، لكنها لا تملك من الثقة ما يمكنها من البوح لأخيها.. هل تقول له "إن لي صديقا في الجامعة ، زرت بصحبته معظم أرجاء المدينة دون إذنكم و قد وثقتم في أني هناك لغرض الدراسة"، أم تقول "أني أمضيت عدة شهور بصحبة شاب دون أن أحدد ماذا يريد من علاقتنا؟"
فقطع عمر أفكارها قائلا :

- ما أخبار زهرة ؟ لم تزورنا منذ وقت طويل ؟ وتابع مازحا

:

- كدتُ أنسى شكلها

لم تُعقب فهي تدري مغزى السؤال وتعرف اهتمامه بها ؛ لكنه لم يدعها وكرر القول :

- قومي.. زوريها.. اطمئني عليها .. أخرجي إليها و أبلغيها مني السلام

كانت ملامح عُمر تتغير إذا ما ذكر زهرة أو ذكرت أمامه و حينما كان يقول لأخته أن ترسلها السلام منه.

كان يشعر أنه يفعل أمرا كبيرا فخفض بصره و قال لأخته :

لا تبلغيها شيئا .. إنني أمازحك فقط

حاول عمر كثيرا أن يُخرج أخته من حالة السكون التي أصابتها ، لكنه لم يستطع الاقتراب من جوانب كثيرة لا يعرف أنها ربما تكون سببا في إصابة أخته بالحزن و منها فشلها في إقامة علاقة صحيحة وشرعية مع شاب تنتهي لأمر يقبله الدين والمجتمع، ربما ظن أنه من المستحيل لأخته أن تقع في ذاك المأزق، و هكذا يظن معظمهم أن الخطأ قريب من كل فتاة إلا أخواتهم، لكن عمر لم يضر فتاة فكان ظنه حق.

فهو عمر يفكر بنفس الأمر يشعر بنفس الرغبة تجاه فتاة ما و في ذات الوقت يرفض أن أخته يمكنها أن تفكر في نفس الاتجاه ..لأنها فتاة!، لكن عمر لم يتصرف مثل نادر و قرر أن يحبس مشاعره داخله، لأنه يرى أن غده مجهول الملامح، مجهول الهوية لا يستطيع أن يحلم بزوجة و هو لا يدري أي عمل سيتكسب منه للإنفاق على أسرته، أما نادر فالأمر مختلف تماما لديه.

هل المنع من التحدث يمنع المشاعر من التكون؟! حقا إن كانت لا تدري نيته ، فلتتبينها، فلتسأله و لتعرف، لكن الصمت لن يأتي بإجابة أبدا ، إنه فقط يأتي بالظنون التي قد تخطيء و قد تصيب فإن أخبرها ما يرضيها و يُسكِّنها ملكت الجرأة لتتحدث و إن لم يكن فلينتهِ الأمر و تنتهي المشكلة وتتعلم من التجربة .

الفصل الثالث عشر

استجمعت زهرة قوتها مره ثانية واتجهت إلى والدها تسأله

التحدث معه في أمر هام ورغم أن السيد على دهش لذلك إلا أنه قال :
- على الرحب والسعة
- لا أجد في نفسى قوة على متابعة الدراسة في كلية التجارة
- ماذا...؟
- لا أجد ذاتي فيها .. دراستي للأرقام والحسابات تجعلني أفقد أشياء كثيرة أحبها في نفسي ، أشعر أنها تميزني.
- إنها فرصة ممتازة للحصول على عمل براتب كبير. لقد تفوقت في امتحانات منتصف العام و ذلك يعني أنك ستكونين جيدة أكثر فيما بعد
- إنني أضيع من نفسي .. أعذب نفسي بيدي فيها
- ما هذه الفلسفة التي لا تُغني عن المال شيئا ..و فرضا أنك تركت الدراسة في كلية التجارة . أين ستدرسين بعد ذلك .. أقصد و أين ستجدين نفسك الضائعة
- لم أحدد بعد
- و حتى تُحددين.. تابعي دراستك ..و لتُعملي عقلك أكثر من ذلك
- أبي ....
- ما تتحدثين به طيش. ستفهمين ذلك عندما تُصبحين أكبر
و ترك السيد علي زهرة و هو في غاية الغضب و غادر المنزل كله. أما زهرة فقد تركت سؤال والدها عن الكلية التي تود أن تدرس فيها صدى كبيرا في نفسها ..و عراك ثائر بين محاور عقلها ؛ فاذا استطاعت أن تحدد مالا تريد. كيف لا تستطيع أن تحدد ما تريد ..هل لأنها لم تتعود الاختيار أم أنها بلا إرادة ؟!

الفصل الرابع عشر

بسعادة قال أحمد ل ماري:

ضيف لم يأت، ل هناء منصور

- يبدو أن أساتِذتك في غاية الإعجاب بنبوغك
- عرض علي أحدهم فرصة عمل مغرية
- وماذا قررت ؟
- طبعا وافقت

تمنى أحمد لو يطلب من ماري أن تعتذر ليعود لوطنه و هي معه، لكنه وجد أن احتمال العودة للوطن ضعيف و ربما غير موجود ففضل الصمت .. لأن عائلة الطواحني لاتزال على موقفها المعادي له حتى و المهدد لحياته حتى يخرج سجينهم حراً . لقد أذنب سجينهم، لكن أحمد لم يذنب . فكر أن يعود ويواجه مصيره في وطنه أيا كان .. يدافع عن نفسه.. ينادي بحقه و لو لمرة واحده تجاه من ظلمه، لكنه تراجع بعد علمه بحمل ماري فلم تكن إلا شهور قليلة ويستقبل ابنته والتي أسماها "رحمة" والتي خفف وجودها في حياته كثيرا من معاناة الغربة ،و رويدا رويدا صار يتأقلم على حياته و عائلته وفكر مرة ألا يعود مطلقا، لكن شوقه إلى والديه و وطنه كان يأمراه بالتراجع لقد بدأ يشعر بكيانه في الوطن الجديد لكن جذوره مازالت ثابتة في أرضه التي وُلد فيها. ليته ما جاهد في غرسها حتى تعثر اقتلاعها!

كان الصراع داخل نفسه لا يتوقف بين وطن يجد فيه ذاته و أحلامه وكيانه وحبه و يُرحب به . وآخر ينبذه ويطرده. تساءل مرة "ما فائدة اصراري على الانتماء إلى مكان يرفضني و ما فائدة نشر العلم بين قلوب الجهل زينتها ؟" .

إن الوطن ليس أرضا ولا هواء و لكنه البشر الذين يعيشون و قبولهم للآخر و معيار نمو أحلامه في تلك الأرض و تحققها على أرض الواقع. وطنه الجديد أكثر حضارة، أكثر حرية أكثر رفاهية و أموالا.. كل ذلك اختفى في وطنه الأول .كان يحاول كل الوقت أن يخلق فيهم روحا جديدة تدفعهم للأمام و

آمالا جديدة ترفعهم لكنهم كانوا يتهمونه بالاختلاف والانفصال عن أفكارهم عند أول مشكلة قابلته.
إنهم يعيشون بأفكارهم التي يرفضها كل منهم داخل نفسه و يأبى الإفصاح عن ذلك .. و نال العقاب لأنه أراد أن يُعبر عن رفضه لجريمة تحدث أمامه ...

عاد مستر توماس إلى ابنته بعد إنجابها "رحمة" وقد أظهر اقتناعه أن أحمد ليس بالشخص السيء كما ظنّ فيه . تأكد له ذلك بعد نجاح ماري في دراستها الجامعية وعدم انقطاعها عنها . لكنه مازال لا ينسى أن أحمد جاء من بلد فقير متخلف ليس لغرض إلا للاستفادة من علومهم وحضارتهم وأنه لولا وجوده في أمريكا ما وصل للدرجة العلمية التي حققها بفضلهم .

الفصل الخامس عشر

انتهى العام الجامعي الأول لزهرة ونورا ، وإجازة الصيف

ضيف لم يأت، ل هناء منصور

أوشكت على الانتهاء. نجحت زهرة بتقدير مرتفع أما نورا فما حصلت إلا على درجات النجاح. وكان على زهرة أن تخبر والدها بقرارها الذي وصلت إليه بخصوص الكلية الجديدة التي قررت أن تبدأ الدراسة فيها مع بداية العام الجديد . قضت زهرة وقتا طويلا لتحديد مجال الدراسة الذي يمكنها أن تُبدع فيه أو تجد راحة في نفسها وهي تقوم بعمل يخصه .

اختيار والدها لحلمها منذ البداية لم يعطها فرصة كي تختار ما تشاء . لكنها اختارت و ما يبقى لها إلا تحقيق اختيارها، ففترة التحويل قصيرة و عليها أن تتم أوراقها سريعا و إلا ستقضي عاما آخر في مجال لا تحبه ؛ وفي وقت حاولت أن تختاره بعناية قالت لوالدها :

- لقد وجدت أن دراستي في كلية الزراعة تناسبني أكثر
- زراعة ؟؟
- نعم
- هل جُننتِ ؟..تتركين تجارة بالإنجليزية بعد تفوقك فيها و تتجهين للدراسة في كلية الزراعة التي يزيد عدد طلابها عن عدد شتلات الأرز في مساحة دلتا مصر؟!
- لكني أحب دراسة هذا العلم .. أشعر أنني أجد....

قاطعها والدها بعصبية قائلا :

- غباء ..ما تقولينه وتريدين عمله هو غباء ..و لن أدعك تضيعين نفسك بغبائك ... هل تُخبريني أين وبكم يمكنك العمل بعد تخرجك منها
- أثناء الدراسة يمكنني اكتشاف مجالات العمل التي تخص العلم
- لن تفعلي ذلك ..و لو فعلت أو صممت على ذلك سيكون مصيرك عدم دراسة أي علم ...مفهوم ؟

أعطى السيد على قراره الأخير و لم يكن على زهرة سوى الإصغاء و التنفيذ . وإن لم تكن مقتنعة بكلمة واحدة منه ؛ فماذا تكون هي كي تعارض ولي أمرها الذي يُنفق عليها مأكل وملبس وسكن .. إنه يُقدم لها ما لا يقدمه لها غيره ولن تستطع تدبيره بنفسها و في مقابل ذلك عليها أن تُخضع رغباتها و حرياتها له .. عليها أن تعيش كإحدى الأغنام التي يربيها في حظائره إنه والدها وإنه حق عليه أن يُقدم لها ما يقدم وفى مقابل ذلك إنها ليست حرة. لا يمكنها أن تحقق أي مال من أي عمل، إذا فهي لا يمكنها التعبير عن رأيها ، بل يجب ألا يكون لها رأي بالمرة إلا ما أملت به السلطة العليا.. السلطة الممولة صاحبة رأس المال.

ماذا يضر والدها أو ينفعه من التحاقها بكليه الزراعة أو غيرها؟ هل هي حقا ساذجة وهو يبحث عن الصالح لها ؟ أم أن الأمر كله يعود لتمتع السيد بسيادته وشعوره بضعف من يسوده؟ أم أن العلم ليس رغبة واتجاه ولكنه فريضة وقانون له وقت لازم وأجر قائم وعقاب حازم لمن لا يؤديه.

ربما كانت بعض العلوم هكذا، لكن هل اختيار زهرة لكليتها يتبع أي منها..

إن السيد على ينسى كثيرا أن غيره من بني البشر يمكن أن يكون لديه حلم ورغبة . ينكر أن هناك غيره من البشر يستطيع التفكير و يمكنه أن يحلم ويتخيل . إنه يراهم كالدواب يعيشون ليأكلوا ويشربوا ويناموا. تلك أقصى الأماني في الحياة لهم ..لهذا يعطي المال لروزان و يعطي المال لزهرة . وذلك على أن تُحقق كل منهما ما يريده منها فروزان لابد وأن تستمر في حياتها و زهرة لا يجب إلا أن تكون كما يريد لها أن تكون . السيد علي يرى فيما يفعله كل الحكمة والعقل.. لكن أي حكمة يمكن أن تدفعنا لظلم أقرب الناس إلينا و

حرمانهم من أقل حقوقهم و هو الشعور بالإنسانية و ممارسة الاختيار . إنهم بشر لهم إرادة وعقل . إن السيد علي يدعو دائما في قريته الصغيرة إلى احترام الآخر لأن في احترام الآخر احترام للذات. لكن ماذا يفعل إنسان فقد ذاته ..تحت تأثير سيطرة غيره عليها و لئن حاول مجرد محاولة في صنع قرار أو التفكير كان مخطئا و له العقاب ، لذلك كان واجب زهرة على نفسها أن تتخلص من تلك الأشياء السخيفة (حسب وصف والدها) التي ربما أمكن أن تحقق لها السلام النفسي في وقت ما .

إن قانون السيد علي مع ابنتهم كمن يقول " إنهم مخطئون ..لذا فيجب أن أقتلهم لأحميهم .. أنا أقتلك لأحميك من رعب انتظار الموت ..حقا إن خطأك مازال بعيدا عني ومازال صغيرا ..لكن لابد من قتلك كي لا تفعل أخطاء أكبر "" ...!

أثناء الإجازة كانت زهرة تذهب للمدينة مرتين أسبوعيا لتلقي دروس الحاسب واللغة كانت تلتقي بسمر فيهما ، أخبرتها عما حدث و عن رغبتها في أن تلتحق بكلية الزراعة وليس التجارة و لأن سمر ليست كزهرة فتاة وديعة مستسلمة فقد قالت لزهرة :

- ربما كان والدك يرى أن ما يفعله حقا.. و يسعى لأجل الافضل لكِ.. لكن حياتك من حقك أنت ، أنت وفقط من عليه حق الاختيار فيها .

ترددت زهرة عند سماعها ما قالته سمر ..فكرت كثيرا ثم نظرت لسمر التي تستنشق عبير الحياة بحرية كالفراشات و تذكرت نورا التي أدى بها الإحباط إلى شبه الفشل في دراستها .. لأنها لم تستطع أن تخبر والداها أو أخيها عن مشكلة واجهتها كي يساعداها . و تساءلت في نفسها :

- لماذا استمرُ في الخضوع لقوة تخنقني ولا تحميني. الجميع يتحايلون.. يكذبون.. يخدعون.. ثم ينالون كل ما يُريدون ..و من لا يستطيع منهم أن يتحايل فإنه يهرب ؛ لكن إلى أين أهرب. أين المفر.. ليس أمامي طريق أفر فيه أو مكان أفر إليه . إنني أعيش في أكثر الأماكن أمنا لي .

و رفعت صوتها قائلة:

- هل سينتهي العالم إذا غيرت دراستي.. لماذا أخاف إذا كانت النهاية لا تختلف بالنسبة لي .فعدم الدراسة لا يختلف كثيرا عن دراسة علم لا نحبه . فلتكن النهاية كما تكون ولكن على الأقل تكون و جزء منها بإرادتي و ليس رغما عني.

- سيمنعك والدك من الدراسة ..و ربما يفصلك عن العالم . إنه يملك القوة ويملك القرار

و تساءلت وهي تنظر نحو سمر:

- إلى أي درجة يمكن أن يكون والدي قاسيا معي لو علم ؟؟

- يمكنك أن تخفي الأمر بسهولة ما دمتِ تعيشين بعيدا عن المنزل أثناء الدراسة . لكن ماذا تفعلين بعد ذلك؟

كانت سمر تشعر أن الأمر بسيط جدا و أن زهرة هي من تضخمه ؛ فلم يكن عقل سمر الذي لم يتقيد مرة واحدة يمكنه أن يتخيل ما يمكن أن يفعله السيد على إذا عرف أن ابنته لم تُنفذ رغبته .

عادت زهرة إلى البيت وقد قررت أن تأخذ بالحيلة ما لم تستطع أن تناله بالحق . كانت هناك مفاجئة تنتظرها . لقد حضرت نورا لتُلقي عليها نبأ هام و هو أن عمر قد تحدّث إلى والده عن رغبته في الارتباط بها وأن والدهم الحاج عبد الجواد قد تحدث إلى والد زهرة . و قد أرسل عمر نورا ليعرف رأي زهرة منها .. لكن المفاجأة التي أدهشت نورا هي أن زهرة ليس لديها علم بكل ذلك ، فالسيد علي قرر

بالموافقة و حدد موعد للخطبة بمجرد حصول عمر على عمل يُدر عليه دخل خاص . سواء أكان وظيفة أو مشروع يقيمه بنفسه... كلّ ذلك حدث وزهرة لم تعرف بالموضوع من أي واحد منهم، والدها أو نورا أو عمر . كانت آخر من يعلم و رغم ذلك كان عليها ألا تندفع في كلمة تخرج من فمها . فقد كادت أن تثور وترفض ليس لسبب إلا لتجاهل والدها لرأيها في موضوع يخصها إلى هذا الحد .

حقاً إنها تعرف عمر و لكنها لم تعرفه بالصورة التي يمكن أن تراه من خلالها شريكا لحياتها . صمتت ولم تعطي جوابا لأنها تريد أن تحفظ جو الأسرة مستقرا حتى تنتهي من أمر تحويل أوراقها إلى كلية الزراعة. و مع كل تلك الأفكار طفى سؤال في ذهنها لتعلنه على نورا :

- أعجب من أمر عمر.. كيف يفكر بالارتباط بفتاة لا يعلم عنها شيئا ؟.. أقصد لم يتحدثا في أمر هام معا قط.

إن زهرة تعلم أن عمر لا يحتاج إلى الحديث إليها ليُقرر الزواج بها ؛ و قد تمنّت هي ذات يوم أن تكون زوجة لأحمد أخيه الأكبر دون أن تقترب منه قط و بالرغم من ذلك كان أحمد نموذجا لفتى أحلامها كما تقول الفتيات و هي لم تعرفه إلا مما كان يُقال عنه في القرية قبل الحادث. يكفي أن تكون صديقة لنورا كي يعرف عمر حدود شخصيتها فالمرء على دين خليله .

لم تكن نورا بحالة جيدة وهي تتحدث إلى زهرة فقد بدأت تتقوقع داخل اليأس والإحباط مرة أخرى.. و كانت زهرة تعرف أن لا شيء يدعو نورا لهذه الحالة سوى أمر من اثنين الأول اشتياقها لأحمد ورغبتها في الحديث إليه و الثاني انشغالها بنادر و إلحاحه عليها ليتقابلا من جديد . أما الأول فقد استبعدته لأن نورا إذا اشتاقت لأخيها تحدثت بحرية عن إحساسها بالحزن لفراقه . و تقول بوضوح:

- اشتقت لأخي ..احتاجه كثيرا

و تبدأ بعد ذلك في سرد حياتها معه قبل سفره و كيف كان الحديث بينهما حرا واضحا صريحا . دفنت نورا جمالها بحزن كبير لم تتحدث به لأحد .. إنها لا تستطيع تحديد ما تريده، تراه كل يوم بالجامعة و حين يندفع إليها متسائلا لماذا تبتعد؟ لا تعطيه إجابة و تتهرب . كانت زهرة تشعر بكل ما يدور في نفسها ..لم تكن تحتاج منها شكوى أو حديث كي تعرف ما يدور داخلها، لذا قالت لها عندما لاحظت شرودها :

- كوني أكثر حزما ..لماذا تفعلي أشياء أنت غير راضية عنها ؟ لماذا لا تتركينه ما دُمت متشككة في نواياه ؟ كيف وصلت إلى هذه الدرجة من الضعف أين قوتك ؟ أين أنت ؟
- لستُ أدري ، لا أريد الابتعاد ، و أخشى الاقتراب.

اقتربت منها زهرة ، و قالت بمكر:

- ماذا لو كنتِ تحدثتِ إلى عمر ، ما الرد الذي كنت تنتظرينه منه؟
- لست أدري ، لكني أردت أن يستمع لي فقط
- هل أخبركِ، ما كان سيقوله عمر؟ فكري معي، ماذا سيقول رجل ذو حمية عندما تخبره أخته أنها تتعلق بشخص ما.
- لم أعد قادرة على التفكير في أي أمر . لم أعد قادرة على اتخاذ أي قرار ..بل لم تعد لدي الرغبة في إعمال عقلي بأي طريقة ..لقد أصبحت كثور يدفعه صاحبه في الساقية و هو لا يدري في أي اتجاه يتحرك.

حاولت نورا أن تحبس دموعها التي اغرورقت في عينيها و حبست أنغام صوتها في صدرها الذي لم يعد يحتوي غير الضعف ، حاولت أن تجمع شيئا من قوتها لتقول :

- لماذا أترك مالا أريد.. إذا كنت غير قادرة على نيل ما أريد ماذا أستفيد بالتفكير إن لم يكن لساني قادرا على التعبير عمّا

يدور في نفسي و عقلي
و لماذا أرغب و أحلم وأنا غير قادرة على تحقيق تلك الأحلام .
شعرت زهرة بالغضب لما رأت وسمعت من نورا فقالت بحزم :

- أخبريه أنكِ تحدثت لوالدكِ و أنكِ أريته الصور، ثم غضب جدا منكِ، و طلب منك أن تنهي علاقتك به ما لم تحددي الآن نهاية صحيحة لها ، أعلم أنه كذب لكنه سيفضح لكِ حقيقة، أنت مضطرة لذلك، كوني سيدة نفسك، ما دمت لا تعرفين سيدا حقيقيا تسندين له أمرك.

هذه الكلمات خرجت نتيجة غضب شديد و مجرد تهديد فزهرة لم تؤيد الكذب في حياتها قط، لكن ماذا إذا لم نكن نملك حلا غيره.

تقسّم عقلها بين أمور عدة بداية من حياة جديدة تبحث في أسسها ومن يؤسسها معها .. وما ستفعله في الأيام التالية كي تحول دراستها ..و أخيرا كيف تساعد نورا فعليا وليس بالكلام. قررت الصمت بخصوص أمر عمر تنتظر حديث والدها إليها ، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير في أمر عمر هل يمكن أن يصبح زوجا مناسبا لها أم لا ؟

عندم تذكرت أنها ستقوم بتحويل أوراقها في الغد القريب من كلية التجارة إلى كلية الزراعة شعرت بسعادة كبيرة وكأنها قامت بعمل بطولي بوصولها لهذا القرار . أما عن أمر نورا فقد قررت أن تهاتفها مرارا ذلك اليوم كي تدفعها بقوة نحو الحديث إلى نادر و تحديد موقفها منه.

الفصل السادس عشر

لم يمض من الوقت طويلا حتى استطاع عمر تهيئة مكان

ضيف لم يأت، ل هناء منصور

لإقامة مشروع غذائي استهلاكي في أقرب مدينة من قريته . لقد رأى أن تجارة الغذاء هي الشيء الوحيد الذي لا يتوقف الناس عن شراءه بكل طبقاتهم وتعدد ثقافاتهم .. فلا يوجد بشر يملك المال ولا يُفكر في الغذاء كأول حاجة يحصل عليها .

و رأت زهرة أن عمر ليس بالشخص السيئ و إن كانت به بعض العيوب لكن كل إنسان يمكنه إصلاح ذاته إذا ما تهيأت له الإرادة والظروف المساعدة ؛ مثلما حدث معها . و تخلصت من قيود كثيرة رأت أنها تمنعها حريتها ؛ لكن روزان لم تُعجب بتفوق زهرة وتقدمها في أي شيء على الإطلاق حتى زواجها المحتمل من شاب ثري يجعل روزان تشعر بالحنق عليها . كانت روزان تعتقد أن قوة زهرة في التفوق العلمي ربما يجعلها أكثر تأثيرا على والدها مما يحتمل معه أن تتغير معاملة والدها معها مستقبلا لذا كانت كلما ترى زهرة تقول :

- مؤكد أن عمر هذا مصاب في بصره بمشكلة لم يكتشفها بعد وإلا فماذا يجذبه لظل فتاة ؟

- ظل فتاة ..! أنا ظل فتاة ؟

- نعم .. ألم تنظري لنفسك يوما في المرآة ..فبغض النظر عن قصر قامتك الواضح ..هناك وجهك الذي لا يعدو إلا أن يكون وجه طفلة في الثامنة

كانت زهرة تستمع في صمت إلى روزان التي استمرت في حديثها تقول :- كيف لم يُلاحظ اختفاء أمارات الأنوثة عنك ..حتى يظن من يراك أنك لم تنضجي بعد ... أبعد كل هذا ..لا تعتبرين نفسك ظلا؟؟ إني أجاملك بقولي ظلا لفتاة و ليس ظلا فقط.

لم يردع صمت زهرة سوط روزان الذي استمر يضرب دون

توقف . لكن ماذا تفعل ؟ فهي لا تعرف دافعا خلف كلام روزان الجارح و محاولات استفزازها باستمرار .. تستبعد زهرة أن تكون تصرفات أختها نابعة عن غيرة لأنها لا تتميز عن أختها فلو كانت هي قد رزقت الذكاء والتفوق فأختها رزقت ذكاء آخر و جمالا لا يباريها فيه فتاة في مثل سنها و رزقت زوجا اختارته برغبتها و أطفالا و حياة ترسمها هي لنفسها . إن الميزان معتدل بينهما . إذًا لماذا توجد غيرة . و إن لم تكن تصرفات روزان غيرة .. فما الغيرة غير أن نبحث عن عيوب الآخر لنفضحه فيها .

لقد تفهمت روزان خطأها عندما قررت ترك دراستها لترتاح من عناء العمل فيها و فضلت أن تتكل في حياتها على زوجها ووالدها . كانت تظن أنه يمكنها أن تحصل على كل شيء دون أن تدفع أي شيء و لو مجرد احترام ذات الآخر . إنها تنزعج من نفسها كثيرا وهي تختلق الحيل كي تحصل على المال من أبيها و الأكاذيب كي تتهرب من زوجها و تخفي عنه ما فعلته . صارت تريد أن تعطي و لا تأخذ أن تملك ولا تطلب أن تُسيَّد و تأمر ... لا تختلق حيلة و كذبة. إنها تعتقد دائما أنها تستحق ذلك .. إنها تستحق كل شيء و دون مقابل .

تعتقد أن زهرة ستملك كل ما حُرمت منه . لأنها ستتزوج رجل غني فلن تحتاج أن تختلق الحيل لأخذ المال من أبيها و ستعمل و تكسب كثيرا فتكون قادرة على العطاء ... ستكون زهرة هي صاحبة اليد العليا و ليست روزان .

شعرت روزان بالغيرة حقا . ليس فقط لأن زهرة ربما تنال وضعا ماليا أفضل ولكن أيضا لأنها لم تكذب أو تحتال قط . لكنها لم تكن تعلم أو تتخيل أن زهره التي تحسدها داخلها بركان خوف و قلق و أنها قد تعلمت الكذب والاحتيال منها و إنها تسير في طريق كذبة كبيرة ربما تحرمها من كل ما

تتوقعه لها روزان لو انكشفت .كانت زهرة تتحمل إهانات روزان التي تتلقاها منها كلما رأتها و تعتبرها أشياء غير موجودة أو كلمات غير مسموعة ؛ رأت أيضاً أن روزان لديها الحق في التعبير عن رأيها بصراحة وأن كانت صراحة جارحة دوما ؛ لكن على زهرة أن تسمع أو تتظاهر بذلك . لأن عليها أن تكون الأفضل عقلا و الأثقل وزنا في عيني والدها دائما.

الفصل السابع عشر

""الربح جيد .. لمكان مازال جديدا على المستخدمين، لكن

ضيف لم يأت، ل هناء منصور

الضرائب كثيرة ..احتار كثيرا عندما أفكر كيف سأتدبر مصروفات زواجنا.. و أسدد لوالدي ما اقترضت منه؟ ""
قال عمر لزهرة عندما التقى بها في إحدى إجازاتها. لكنها اعتقدت أن أمرا أكبر يشغل باله فسألت :

- ماذا بك ؟
- أشعر بالاغتراب

قال زهرة بدهشة :

- اغتراب ..؟ إذا أنت تشعر بالاغتراب هنا في وطنك بين ذويك ..ما بال أخيك في أمريكا.
- أخي في أمريكا وجد عملا يكفيه لقضاء متطلبات حياته برفاهية . صحيح أنه مطالب بضريبة مثلي هنا.. لكن دخله بعد انتقاص الضريبة يكفيه .
- سيكفينا دخلنا يوما ما
- أي يوم تعتقدين أو بعد كم عام ..و في أي مستوى من الرفاهية يمكن أن نعيش ؟
- سمعت عن إعفاء الشباب من الضرائب
- هؤلاء الذين يقترضون لإقامة مشروعا يُعفوا منها عدة سنوات أما أنا فقد اقترضت من والدي .
- و لما لم تقترض من الحكومة ؟
- لأنها ستطالبني بفائدة و في حالة العجز عن السداد أُسجن .. أما والدي فلن يفعل ذلك

ربما كانت زهرة لا تتفهم أحوال الاقتصاد جيدا أو أسباب الضرائب ؛ لكنها تشعر بالألم مما يحدث و تشعر بالتناقض ...و تتساءل لما لا يتم إعفاء شاب من الضريبة في بداية حياته، هل جزاءه أنه لم يقترض من الحكومة و وفر فرصة عمل فيها لآخر يريدها . لما لا تساعده وتكافئه لاعتماده على ذاته . و خطر في عقل زهرة فكرة فقالت : و لما لا تأخذ

قرضا.. لو اقترضت من الحكومة عُفيت من الضريبة عدة سنوات حتى تُسدد ما اقترضته من والدك و تُدبر مصروفات الزواج .

- كيف ؟ أليس الشرط لكي تقترض وتستغني عن الوظيفة؟

- أنت مستغني ..صح ؟

- نعم

- إذا فلا تحتاج إلا القرض ..و لما اقترض مالا لا أحتاجه ؟

- كي تحفظ مالك الذي تحتاجه ...

- كيف ؟؟

- ستستفيد الاعفاء من الضريبة و تضع مالك في أحد البنوك والفوائد تسدد فوائد القروض .

- قال عمر متعجبا: شيء مثل هذا .. أين أذنك يا جحا؟

ضحكت و ضحك معها و هي تشير بيدها اليمنى لأذنها اليسرى، و تقول " حياتنا كلها كذلك، لا شيء واضح و لا شيء مباشر فيها."

قال عمر موضحا:

- الأمر أبسط كثيرا، موظف الضرائب يأتيك و قد أوضح أمران إما أن تدفع له أو للحكومة، لكنك حين تدفع للحكومة سيجعلك تدفع أضعاف ما يجب عليك دفعه فعليا، و إن دفعت له ، جعلك أمام الحكومة لا تستحق الدفع.

- إذا كنت تعي الحقيقة بذلك الوضوح ، لم يصعب عليك التعامل معها؟

- أنا لن أرشو و لا أريد أن أتهرب ، أريد أن أدفع فقط ما يجب علي دفعه
- بلِّغ الشرطة عن موظف الضرائب، لو تعاملت مع موظف ذو خلق و إخلاص في عمله ، لن يكلفك أكثر مما عليك..

كان الحل الأخير الذي طرحته يبدو منطقيا للغاية، إذا كانت نسبة الموظفين الشرفاء هي الغالبة ، لكن ما يراه و يسمعه يثبت العكس، هل يبلغ الشرطة ضد مرتشي كما بلغ أحمد ضد تجار المخدرات ليلفقوا له جريمة ، و هل يفعل ذلك و يصنع له عداوات لا يعرف كيف يجنبها حياته بعد ذلك ، أم سيجد من يؤمنه من مكر مجرم إذا حاول أن يأخذ حقه منه، الأمور كلها مختلطة ، تائهة و مبعثرة و لا قاعدة ثابتة لها، لا توجد خيارات أخرى غير المشي مع القطيع ، لا توجد حلول إلا التلون بأحد ألوان الظلم و إن تحني عنقك له، ليس هناك فضيلة تستطيع الحياة في قلب الرذائل. ما يؤمنه هو مرضاة موظف الضرائب و ليس مرضاة ضميره، إنه يريد أن يعيش هادئا مستقرا مع من اختارها، لكن هل يتوحد استقرار و هدوء مع ضمير غير راضي و نفس غاضبة؟!

عاد للحديث إليها و هو يتابع وجهها الذي لم تهجره براءة الطفولة بعد و تابع ابتسامتها الخجولة، و هو يقول " لا تشغلي بالك ، يمكنني التصرف، سيكون كل شيء على ما يرام"
و قالت و كأنها تفكر في أمر آخر " أتظن ذلك؟"
فقال " فيما يخص متجري ، نعم ، هل هناك أمر آخر يشغلك"
و كمن تم وخزه ليستفيق أجابت " لا، لا على الإطلاق"

و لم يكن يعلم هو أو أي أحد غيره فيما عدا نورا أنها لا تدرس في كلية التجارة تلك السنة وأنها حوّلت إلى كلية أخرى . تعتقد

أنها تُحبها . كانت غير راضية لأنها لا تستطيع البوح له، فرغم أنها وجدت في نفسها إحساسا بالأمان تجاه ردود أفعاله، لكنها خشيت أن تتحدث ، لأنها اعتقدت أنه سيغضب. لكن إلى متى ستظل تحتفظ بما تخفيه، و هل يجوز أن تستمر علاقة فُقد فيه الأمان أو جزء منه؟

أما عمر فظل يشعر بألم كبير لإحساسه بالظلم مما يحدث حوله . مما حدث لأخيه و مما يحدث له و من جبروت عائلة الطواحني التي تسبب ظلمها في هرب أخيه. كان عمر يتألم ويحزن فقط لكنه لا يدري ماذا يفعل؟ عليه فقط أن يتظاهر بالقوة .. يرسم السعادة هكذا ظن ما يجب أن يكون عليه الرجال.

الفصل الثامن عشر

بعد إلحاح شديد من نادر و بعد توقفها عن لقاءه إلا مصادفة

ضيف لم يأت، ل هناء منصور

كانت تتعذر خلالها و تتركه سريعا، قررت أن تلتقي به، كان صمتهما هو الكلام بداية اللقاء، و كأنه يلومها على تصرفها و هي صامتة تحاول ترتيب أفكارها لتدخل علاقتهما في طور الشرعية أو تنهيها، بدأ هو بالسؤال:

- لماذا؟.. لماذا ابتعدتِ؟
- تحدثت إلى والدي، هل تذكر سؤالك لي في آخر لقاء لنا؟
- أي سؤال؟
- ماذا لو شاهد والدكِ هذه الصور؟
- كنت أمازحكِ فقط، و ربما أردت تنبيهك بعد موقف سمعته؟ استدركت و سألته :- أي موقف؟
- لا داعي لذكره

حاول التهرب من الإجابة، و كأنه يشعر أنه لن يرضيها ما ستسمع لكنها أصرت، و نزولا لرغبتها

قال:- صديق لي أخبرني أنه شاهد أخته بصحبة شاب لا يعرفه، فما كان منه إلا فقد صوابه و انهال على كلاهما ضربا في الشارع و انتهى الموضوع في قسم الشرطة.

- هل سُجن صديقك؟
- لا ، تمت المصالحة .. لأن الموضوع كله كان سوء فهم، فلم يكن ذلك الذي ضربه سوى شابا سألته عن مكان فوقف يصفه لها. لم يكن الأمر كما فهم على الإطلاق.

قالت في نبرة يائسة:- تقصد أن ما فهمه كان يستحق ردة فعله؟

تفهم قصدها و سكت، و سكتت هي تنتظر منه جوابا، لكن صمته طال، فبادرته متظاهرة بالمرح:- لقد تحدثت مع أبي عنك، و أخبرت أخي أيضا، ظننت ذلك أفضل؟

أصابته الدهشة و هو يقول:- نعم!!!

- هل تريد أن تعرف جوابهما؟

قال و هو يحاول يخفي ثورته:- لا يهمني جوابهما، بقدر ما يهمني كيف استطعت إخبارهما أنك تلتقين بآخر دون علمهما، من أين لكِ تلك الجرأة؟ أما خفتِ ما يمكن أن يحل بكِ؟

بين اليأس و الحزن كانت تتحرك مشاعرها و تتابعه بنظرات ترسم الفخر، ثم استدركت قائلة:- أنت تتحدث إلى الطبيبة نورا، والدي يثق في و يعلم أني أثق في خبرته في الحياة ، تلك الخبرة هي توجهني دائما..

و بدا و كأنه غير مقتنع و لكنه قال لها :- و إلام وجّهكِ؟

- لم يطيل علي أعطاني سؤالا واحدا و طلب مني أن أجيب عليه.
- ما هو؟
- و ماذا بعد؟

تظاهر بعدم الفهم و سأل :- و ماذا بعد ماذا؟

- ماذا بعد لقائنا و حديثنا كل يوم؟
- مازال كلانا يدرس، أعتقد أن الوقت باكر لطرح السؤال، مازلنا نتعارف؟.. نحن أصدقاء

ابتسمت بجانب فمها و تابعت بعينيها ما كوب العصير الذي ما زال ممتلئا أمامها..

- ما زال الوقت باكر؟ جيد ، هذه إجابتك للسؤال الذي طرحه علي والدي. سأبلغه إياها.

لم يطلب منها البقاء و هي تغادر، كانت تبكي بحرقة و كل جزء منها كان يبكي ، كيف لم تنتبه إليه و هو يقول لها، لا أريدك أن تتحدثي لشخص غيري، أنا أعرف الشباب أكثر، كانت تسعد بقوله ظنا منها أنه يغار عليها. لم تظن أن نصائحه كانت لحصرها عليه فقط. إن كان غيورا حقا لكان غار عليها

من نفسه و هي لا تزال غير مباحة له. كان عجّل بعرض الأمر على أهلها، و لن يرى أبدا أن الوقت مازال باكرا.

عادت إلى سكنها مع زهرة، فوجدت سمر ضيفة عليهم، كانتا تراجعان دروس الانجليزية و الحاسب التي تدرسانها معا. فسلمت سريعا و دخلت غرفتها.

عندما لاحظت سمر ما بها قررت إنهاء المذاكرة سريعا.
و عادت لتؤكد طلبها على زهرة قائلة:
- حددي موعدا لقضاء إجازتي الأسبوعية معكم في القرية .
قالت زهرة مؤكدة طلبها :
- سأكون في غاية السعادة وأنت معنا ؛ لكن ألن يُمانع والدك ؟
- لا لن يحدث عندما تحين الإجازة القادمة أخبراني و سأكون مستعدة .
كانت توقعات زهرة صحيحة فعندما أخبرت سمر والدها أنها تريد أن تقضي بعض الأيام من إجازة نصف العام في زيارة إحدى صديقاتها سألها والدها من تكون ؟ و أين تعيش ؟
كانت سمر لا تعرف شيئا عما دار بين العائلتين من مشكلات لذلك فوجئت بنظرة غاضبة من والدها عندما سمع عن عائلة نورا و قال :
- دعكِ من علاقتك بتلك الفتاة
- لماذا ؟
- لأنهم مثل أعداء لنا
- أعداء ؟!!!!
- نعم ..يقولون في القرية أن أحمد عبد الجواد هذا تسبب في سجن ابن عمي حسني الطواحني و لم يكتفِ بذلك و قتل عمي الحاج فرحان الطواحني ثمّ هرب إلى أمريكا و تحايل والده

؛ حتى خرج من القضية بريئا
قالت سمر والدهشة واضحة في ملامحها
- د. أحمد قتل جدي فرحان ؟؟
أجاب والدها بحدة:
- نعم،
- كيف ؟ ..لا أصدق ..يقولون إنه حقق نجاحا كبيرا في دراسته بالخارج ..و يعمل في مكانة جيّدة هناك .. كيف ينجح قاتل هارب في بلد لا تعرف المجاملات و من تُجامل ؟ غريبا ..كيف ؟

كانت سمر تُردد في عقلها أسئلة كثيرة تنبع من دهشتها مما تسمع من والدها . إنه يعلم أن ما قاله لها كله تلفيق وكذب . لذا غضب لأنها لم تقتنع و ما زالت تُفكر .. إنه يخشى أن تكتشف الحقيقة وتعرف كذبه ..لكن ماذا يفعل ؟ حقيقة أن خيوط الروابط ضعيفة بينه وبينهم لكنه لا يريد مزيدا من المشكلات منهم و معهم . ولكي يوقف سيل الاسئلة الواضح في عيني ابنته قال :
- لا تذهبي هناك ..يمكنك قضاء إجازتك في أي مكان تفضلينه
فقالت في رجاء :
- تعلم والدي أني أحبك ولا أجرؤ أن أنكر لك قولا و لكن يجب أن أسمع منها . لقد عرفتها من شهور طويلة و عرفت كيف تفكر وتتصرف ..و سمعت كثيرا عن أخيها أحمد ولا أظن أنه يقتل أبدا
استسلم والد سمر لرغبتها و قال لها :
- أنت عاقلة بما يكفي أن تكوني مسؤولة عن أفعالك .. و لكن احرصي ألا تقعي في المشاكل.
و ترك والد سمر القرار لها و لم يتابع بمزيد من القول . فكرت أن تسأل نورا قبل موعد الإجازة و لكنها تراجعت

لانشغالها بالامتحانات و قررت أن تؤجل الحديث حتى تسافر معهم .

الفصل التاسع عشر

إن ما يحققه من ربح لا يكفي لتحقيق نصف ما يحتاجه. متى

ضيف لم يأت، ل هناء منصور

سيسدد ديون والده ..متى سيملك المال الكافي ليكون له بيتا . ألا يمكنه الاعتماد على نفسه و أن يبدأ من الصفر كما يقولون . يجب أن يفعل والده كل شيء لأجله . يجب أن يتلقى كل شيء جاهز مرتب . و إن لم يكن كذلك تضيع أيامه بلا تحقيق أي شيء . هل سيجهز له والداه بيتا بعدما يبنيه ليعيش مع زوجته فيه . إنه لا يريد ذلك يريد أن يبني بيته بنفسه و يجهزه من كده وعمله و يعيش بلا دين يُثقل همه. كلما حاول حسابها لم تعجبه النتيجة . يحتاج لسنين طويلة كي يُحقق ذلك . خلال تلك السنين يمكن أن تكون الفتاة التي أحبها أوشكت أن تكون ليس أما لخمسة أطفال فقط ولكن جده .

كان عمر ككل البشر عَجولا، يريد تحقيق كل ما يريد و في صورة أقرب للحلم في عام واحد، بل أنه لم يتم عاما بعد افتتاحه لمتجره، لم يفكر بدقة و لم يدرس أن الأمور كلها حتى المشروعات الجديدة كي تصل بنا لنقطة الرضا تحتاج لوقت ، كي تنمو و لوقت يبني ثقة بينه و بين عملائه و ما ينمو ببطء يكون أكثر صلابة و قوة.

لم يفكر أن أخاه تزوج و هو طريد هارب، و لم تعجزه المصروفات و تكلفة الجهاز لأنه ببساطة لم يضعها نقطة اهتمام مبالغة كما يضعها عمر بحجة أن الوضع مختلف بيننا و بين الناس في أمريكا. ما الذي جعله مختلفا؟ أليس من هناك بشر و من هنا بشر؟
ألا يملكان نفس الأولويات و نفس الرغبات؟
لم نقول يختلف الوضع، رغم أن عمر يملك مسكنا للزوجية، لن يستهلك نصف راتبه في دفع إيجار له كما يفعل أحمد؟
لكننا هنا في الشرق نعشق المقارنات و نعشق الفوز فيها دائما و إن كان ذلك الفوز على حساب خسارة أعمارنا و راحة

خاطرنا.
فبدلا من التفكير في حلول و فيما هو مهم لبناء أسرته، قرر الهجرة للحصول على مزيد من المال مقابل مزيد الذل، ليفوز في المقارنة التي يصنعها في عقله بينه و بين أقرانه.

و استسلم لضعفه وقرر محادثة والديه بما ينوي :

- يجب أن أهاجر .. أريد عملا يدرّ علي دخل معقول.. إلى متى سأظل معتمدا عليك في حياتي

قال والده :

- تهاجر إلى أين ؟
- أي دولة عربية أو أجنبية ؟

صرخت أمه قائلة :

- تسافر ..!! لماذا تسافر ؟ ألا يكفينا فراق أحمد الذي لا ندري متى يعود ؟

وبكت و هي تقول :- لماذا تتركانا أنتما الاثنين ..لماذا؟
و زادت في البكاء حتى أنها لم تتم حديثها ؛ فقال والده:
- انظر لما فعلت بها .. لو أنك أكثر فطنة لما تحدثت في موضوع كهذا الآن .
شعر عمر بالأسف لأنه ذكّر والديه بأحزانهما لفراق د. أحمد و عدم رؤيتهما مولوده الأول فتوجّه إليها و قبّل رأسها و يديها و قال :

- لست أدري لما تسبقين الحزن بدموعك .. لو كانت هجرتي محزنة لكِ ، دعي الحزن حتى أسافر.. لما تُقدرين العواقب قبل الأحداث .

و قبل أن تتفرق العائلة من مجلسها ارتفع صوت الهاتف؛ كانت مكالمة مع د/أحمد لتنتهي موجة الحزن التي أقامها عمر بحديثه عن الهجرة .

بدأت العائلة تشعر أن أحمد قد تأقلم مع حياته الجديدة؛ و بدا لهم أنه سعيدا جدا بحياته و مجتمعه الجديد ..

مجتمعه الذي شعر فيه بمعنى جزئي للحرية التي فقدها في وطنه ..استطاع أن يتفوق أكثر و أسرع .
وجد هناك كل ما تمنى أن يُحققه في وطنه و رغم أنه أنكر على مجتمعه الجديد نظرته إلى وطنه إلا أنه لم يُحاول أن يحْمل في نفسه موقفا معاديا ضدّه . فقد وجد أن وطنه و أهله هم المسؤولون عن تلك النظرة و كل ما يمكنه أن يفعله حيال ذلك أن يكون نموذجا جيدا ، ليُحسّن جزء من تلك الصورة السيئة المكونة لديهم . فهم يروا أن وطنه يعمه الجهل و أهله فقراء و أنه لولا إعاناتهم لما كانوا موجودين أو لانقرضوا منذ سنوات .
كان أحمد يرى ذلك ويسمعه في حديث السيد توماس والد ماريا في كل مرة يقابله فيها .. كان يقوله بالتلميح احيانا والتصريح كثيرا . إذ أنه رفض إسلام ماري ثم بعد ذلك رفض زواجها من عربي مسلم و كأن الإسلام هو السبب فيما يحدث في بلاد العرب ..لا العرب أنفسهم .
دُهش أحمد كثيرا من مقاطعة السيد توماس لابنته بعد إسلامها ..لماذا يُعارضها في اختيار دينها و هو يندرج مع بنود الحرية الشخصية .. إنها لا تضر أحدا باختيارها الدين الذي تشاء ..فلماذا يعارضها ؟
وأخيراً أيقن أن ذلك المجتمع الذي يحيا فيه يحمل متناقضات كثيرة . تماما كما في أرضه ، فلا عدل يكتمل ولا ظلم يسود دوما عليها، كل الأماكن سواء. الفارق الوحيد بينهما أن هناك أمم تُقدّر العمل والعلم وأمم فقدت التقدير له .
أرادت ماري أن تأخذ أحمد من شروده فقالت :

- نطقت رحمة أولى كلماتها اليوم

ابتسم أحمد قائلا :
- رائع ..كما أنه مبكر .. إنها تنمو سريعا . تُرى أي كلمة بدأت بها ؟

قالت ماريا :- مام... ككل الأطفال
- هل تكررها الآن... إذا نطقتها لها؟
- حاول

حملت ماريا الطفلة و فإذا بها تقول (مام) و صارت تكررها كلما سمعتها و كأنها تغني مع أمها . شملتهم سعادة كبيرة بها ..و حمل الطفلة عن أمها و قال لها مداعبا (داد) نظرت إليه الطفلة ولم تكررها و لكنه حينما أعطاها لوالدتها قالت (داد).

رغم السعادة التي ملأته و هو يسمع كلمات طفلته الأولى شعر بحزن كبير داخل نفسه فطفلته تنطق أولى كلماتها بغير لغته .. إنه لا يُمانع أن تتحدث الإنجليزية وتجيدها . لكنه يخشى أن تتعلم الإنجليزية أولا فلا تستطيع أن تتحدث العربية كأهلها. توجه إلى ماري قائلا:

ـ لي رجاء عندك.. أتمنى أن يتعلم أبنائي في وطني يعلمون لغته وتاريخه والجيد من عادته

ـ لكنى لا أعرف متى يمكننا الذهاب هناك

ـ حتى ذاك الحين يجب أن تعرف رحمة العربية مع الإنجليزية .

إنه لا يستطيع أن ينسى وطنه رغم اندماجه في المجتمع الجديد .. يتملكه شعور قوى بانتمائه إلى وطنه إلى ترابه وهوائه وفكر .. "" ربما أن ذلك الشعور المسمى بالانتماء هو الذي جعله رافضا فكرة السفر قبل حضوره إلى نيويورك "

الفصل العشرون

انتهت امتحانات نصف العام . كانت زهرة ونورا وسمر

ضيف لم يأت، ل هناء منصور

يستعدُّن لمغادرة المدينة والسفر إلى القرية متوجهات إلى القرية ..و السؤال يتردد في عقل سمر " هل قتل د/ أحمد فرحان الطواحني فعلاً؟؟"

و نورا مازالت لا تعرف بانتماء سمر إلى أسرة الطواحني أما زهرة فكانت تُفكر في تلك اللحظة التي تكتشف فيها الصديقتان أنهما عدوتان .
و في الطريق قررت سمر أن تُعلن أنها تعرف تلك القرية و أنها زارتها مرات عديدة منذ سنوات . تظاهرت زهرة بعدم الاهتمام و لم تعطي ردا أمّا نورا فسألت : حقاً ؟
قالت سمر : نعم .. اعتقد أنهم أبناء عمومة أبي ؟ إنها عائلة الطواحني .. ألم تُلاحظي اسمي قط ؟
قالت نورا : - أبدا ..لقد عرفتك بنفسك فقط .
و تغيرت ملامح نورا فجأة . و هي تستمع إلى سمر لم تستطع الرد بأي كلام أكثر مما قالت لسمر لذا نظرت إلى زهرة نظرة متهمة و قالت :
- وأنت ألم تُلاحظي انتمائها لهم من قبل ؟
لم تستطع زهرة الكذب . وقالت :
- لاحظت ..
و لم تزد من الكلمات حتى سألتها نورا . :
- و لما لم تُخبريني ؟
- رأيت أنه لا يهم فالمشكلة بينكم وبين أطراف عائلة الطواحني المقيمون في البلدة ..و سمر لم تزر القرية منذ سنوات طويلة إنها لا تعرف أسماء أقاربها هنا . رأيت أن الأمر لن يختلف إذا عرفت أو جهلت به .

و بشك كبير قالت نورا لزهرة :- حقاً ؟ لو كان الأمر لا يختلف لأخبرتني بمجرد علمك ؟

و هنا تدخلت سمر قائلة لنورا :
- ولماذا يكون الأمر مُختلف .. إنني لم أعلم بحكاية أهلي معكم إلا منذ أسابيع قليلة من أبي .. و أتمنى لو اسمعها منك فأتبين الحقيقة .
قالت نورا :
- أي حقيقة .. حقيقة أن تلفيق قضية لأخي لتضيع سمعته ؛ أم حقيقة تهديدهم له بالقتل بعد براءته إذا فكر في العودة ؟ حددي أي حقيقة تُريدينها الأولى أم الثانية أم حقيقة أخرى و هي انهيار سعادة عائلة كاملة بما فعلتموه .
كان لدى سمر الصبر و التفهم الكافي لغضب نورا لذلك فضلت الصمت ...و لم تحاول إطالة الحديث بينهما أكثر حتى تهدأ و تفكر . ربما تقتنع في النهاية أن سمر لا يد لها فيما حدث ولا ذنب لها في انتمائها لعائلتها .
كانت نورا كمن يبحث عن ذريعة لأي شخص لتفضي إليه بما في قلبها من كره لهؤلاء الناس اللذين كانوا سببا في كل ما أصابها من مشكلات و إحباط ؛ فلولا هجرة أخيها لما تعلقت بنادر و انتهت علاقتها إلى ما وصلت إليه و لوجدت من يسمعها و يُقدر ما تقول و ينصحها دون غضب . و قد وجدت نورا أخيرا من تقرب دماءه لعائلة الطواحني فأفرغت بعض ما بها من غيظ دون تفكير .
وصلت الفتيات الثلاثة إلى القرية و كان عمر ينتظرهم ليصحبهم حتى المنزل . كان منزل زهرة هو الأقرب فتوجهت إليه مع سمر و ودعت نورا. وكان الغضب لم يختفي بعد من عيني نورا فسألها عمر عما حدث لكنها لم تخبره شيئا .

كان أول ما فعلته سمر عندما استقرت في منزل زهرة هو سؤالها عما حدث في قضية د/احمد و طلبت من زهرة أن

تُخبرها كل ما تعرفه عنه كشخص أولا. كان من الواضح لسمر أو أي إنسان يستمع لزهرة وهي تتحدث أنها تُحب الحديث عن ذلك الرجل إن لم تكن تُحبه شخصيا . أثار ذلك سمر فحاولت استفزازها :

- ألست خطيبة أخيه ؟
- نعم ..
- و هل يشبهه كثيرا ؟
- ليس تماما ..يتشابهان كالأخوة ليس أكثر
- توقعت أن يشبهه لمّا وضح إعجابك بالآخر

حاولت زهرة تصحيح ظن سمر قائلة:

- ليس هناك من يعرف أحمد ولا يُعجب به و يحترمه حتى أعداءه لا أشك في احترامهم له .
- لكن كيف وصل السم للرجل ..
- ليست تلك القضية الآن .. فالرجل مات و أحمد برئ و مازالت عائلة الطواحني تهدده بالقتل إذا عاد
- و أين القانون ؟ الأمر بسيط ..تتعهد عائلة الطواحني بعدم ايذاء أحمد ومسئوليتهم عن حياته .
- ثم ؟
- سيأمن شرهم عند عودته
- و هل سيؤثر مثل هذا التعهد على عائلة الطواحني ..عفوا لك فمنهم أصولك ..لكن كيف تأمني عهدا لكاذب ؟
- و ما أدراك ِ إنهم لن ينتقموا منه في ذات تخصه وليست ذاته ؟
- لن يحملوا لنا عهدا ؛ لأننا لا نملك قوة ضدهم.

في الصباح كانت زهرة تتابع المستشفى من شرفتها و معها سمر فقالت زهرة :

- من ذلك المكان كنت أراقبه كل يوم . مُحال أن يكون قاتل

كانت سمر تُفكر في أمر أحمد و ما قالته نورا عما أصابهم بعد رحيله و تتألم لما يحدث كثيرا، فقالت ردا على حديث زهرة :

- و محال أن توجد مشكلة بلا حل .

و بعد صمت قصير قالت لزهرة :

- أريد أن أزور عائلتي ..

لم تكن زهرة تتوقع ذلك من سمر وخاصة بعدما رأت أن سمر قد أيقنت حقا ببراءة أحمد . وأن سمر ربما فضلت قطيعتهم بعدما تسمعه، فقالت :

- لماذا ؟

فقالت سمر :-

- ألم يهاجر أحمد مغصوبا و هُددت سمعته ..بكذبه ؟

تأملت زهرة السؤال ثم أجابت :

- نعم
- إذا يمكن أن يعود بكذبة .. لا يفلّ الحديد إلا الحديد

الفصل الواحد والعشرون

عمّ الكرم سمر من كل جانب وهي في بيت أعمامها . بيت واحد

ضيف لم يأت، ل هناء منصور

تعيش فيه ثلاث أسر . كل أسرة في شقة منفصلة إلا أنهم يجتمعون دائما .. كل فرح وكل حزن و كل موعد غداء .
يتراءى لكل من يراهم أن اجتماعهم ليس مجرّد اجتماع أجساد و أشلاء فقط و لكنه اجتماع عقول وأرواح . تبدو عليهم علاقة من الترابط تبهر كل من يراها أو ينتبه إليها و يفكر فيها . عائلة الطواحني تنفخ السم في كل أرجاء القرية الواسعة و ربما إلى القرى والمدن المجاورة. تنشر السم على كل من رأت أنه ربما يستطيع مواجهة قوتها يوما ما .
شعرت سمر بالسعادة وقتاً قليلا لانتمائها إلى عائلة مترابطة كهذه و لكن سرعان ما تحول شعورها إلى ألم يعتصر نفسها و يقتل فخرها . لأن ذلك الترابط لم يكن إلا لشيء تنفر منه النفوس حتى الطواحنية ذاتهم ينفرون إذا اقتربت منهم أكثر مما يريدون .. ذلك الشيء هو الخراب والدمار و الشر .. إنهم قوة حقا و لكن قوة ليس لها دور إلا تحطيم كل قوة غيرها .

أمّا زهرة التي كانت ترافقها فقد شعرت بغربة شديدة بينهم .. إنها لا تستطيع مشاركتهم أي حديث .. فهي دائما في شك مما ستقول هل سيُرضي من حولها أم لا؟ كانت تخشى منهم ..تخشى أن تضطر إلى ترك قريتها التي تربت فيها و خاصة بعدما ارتبط مستقبلها برجل على أرضها . انها في شوق دائم للقرية اذا ما فارقتها. هل تغامر بحياتها و عمر لأجل كلمة أو تصرف ربما يُغضب تلك العائلة المتسلطة ؟ "" لا لا لا ..يُجدر بي الصمت .. فأنا لا أملك ما أدافع به عن نفسي ""
هكذا رددت في نفسها عندما سألتها سمر :

- لما لا تشاركينا الحديث ؟

لم تتكلم زهرة ، فقال السيد حسن الطواحني :

- ربما كان لديها ما يشغل ذهنها .

فقالت سمر متعمدة أن تذكر الاسم :

- "أراهن أنها تفكر في موعدها مع عمر عبد الجواد ." وتابعت الحديث إلى أحد أعمامها :- هل تعرفه يا عمي ؟
- أليس هو أخ طبيب المستشفى السابق ؟ و قبل أن تُجيب زهرة تابع قائلا :
- لو كانت لك أي مشكلة معهم أخبريني ، سأنهيها لأجلك . أنت مثل سمر .

لم تنطق زهرة بحرف ؛ رغم أنه كان من المفروض أن تتحدث و لكن قلبها كان ينتفض في صدرها كمن هو مقبل على فعل يكرهه ؛ و تساءلت في نفسها :

- لماذا تحتملون الشر أولا ؟

ساد الصمت فقطعته سمر بمرح مصطنع :

- لا يا عمي .. إن عمر خطيبها .. إنها تفكر فيه شوقا.

قال العم وعلامات الاستياء على وجهه :

- و كيف صرت إليهم ؟.. أنا أعرف أن والدك رجل صالح ثوبه أبيض كالثلج .. كيف يضع يده في يد عائلة كهذه ؟

و للمرّة الأولى تتحدث زهرة .. وملامحها تحمل الألم و كأنها لا تطيق لعمر وجها :

- كله نصيب ..قسمة ونصيب

لكن الرجل لم يكتفِ منها بتلك الكلمات القليلة و قال لها :

- لا يا ابنتي .. الإنسان أيضا له دور في اختيار مصيره ..لقد تميّز بالعقل ..و إن لم يستخدم ذلك العقل جيدا فعليه أن يحمل عن نفسه لقب بني ادم و ليصبح بني أي شيء اخر .

ردت زهرة في قلق :

- لكن إذا كان ثمن الاختيار فقد حرية أو مصير مجهول العواقب علينا ألا نختار .

لم تكن زهرة تعلم لماذا قالت هذه الكلمات لحسن الطواحني ؛ ربما لأنها تذكرت أحمد فجأة و عرفت أن هذا المنافق الذي يدّعي العقل والحكمة هو السبب في ابتعاده عن أهله و هو

السبب فيما حدث لنورا بعد سفر أخيها و هو السبب في مرض السيدة فتحية شهورا طويلة .
استغلّت سمر ما قالته زهرة سريعا لتبدأ تنفيذ ما جاءت لأجله .. و في نفس الوقت لا تترك الوقت لعمها لاستدراك ما قصدته زهرة فقالت :

- إذا لم يستطع الفرد أن يختار فهو لا يملك الحرية ؛ لأن الحرية والاختيار يسيران دائما متوازيان لا يتقاطعان أبدا فكل منهما يؤكد الآخر . و دليل ذلك الشاب الذي قرأت عنه من قريتكم وغالبا هو طبيب المستشفى السابق (و بدأت سمر ترسم الكذبة الأولى) لقد اختار أن يكون إنسانا عظيم في علمه و في قدره و نظرا لأنه لم يتمكن من تحقيق ذلك في وطنه دفع الغربة ثمنا لاختياره و لكنه أبدا لم يتنازل عن حريته.

كانت سمر تتحدث عن د/ أحمد متصنعة الانبهار و كأنها لا تدري حقيقة العلاقة بينه وبين عائلتها . كانت تتعمّد أن تُظهر إعجابا شديدا به . إنها ألبسته ثوبا من العظمة لم يصل إليه بعد . إنها تفخر أن جذورها تنتمي إلى نفس القرية التي ينتمي إليها د/ احمد و أوشكت أن تقول لهم :

- لو أن ذلك الرجل من عائلتنا ، لكنا من العائلات القلائل التي أنجبت الأفذاذ .

حاولت سمر بكل ما تعرف إثارة حفيظة أعمامها ليُجرّموا أحمد أمامها ..لكنهم ملكوا زمام حديثهم إلى آخر كلمة قالوها . وقال لها عمها حسن في لهجة تغلفها الطيبة والحب :

- سمر أنت ما زلت صغيرة تعوّدي ألا تحكمي الأمور بظاهرها .

فقالت سمر بغير اقتناع :- ربما
أصابت كذبة سمر ما أرادته منها فقد شعرت عائلة الطواحني بالغيظ الشديد مما قالت عن أحمد لقد أبعدوه ليُعذب بفراق

أهله .. مثلما حصل مع سجينهم.. وها هو يجني من غربته اكثر مما كان سيحصل عليه وهو بين أهله مرات ومرات . إن بنتهم التي تجري فيها دمائهم تحترمه بشدة . فقرروا أن يكشفوا لها جزءا من الحقيقة .. حتى لا تستمر في نظرتها المثالية –كما يعتقدون- إليه .

تنهدت زهرة بعمق عندما خرجت من وكر الطواحنية. شعرت وكأنها خرجت من بئر عميق و أسرعت إلى عمر الذي كان ينتظرها في المنزل و بدأت تحكي له ما حدث.. تعجب عمر لهم وهمّ أن يدافع عن نفسه و لكنه تذكر ما جاء لأجله فقال :

- إذًا لم يؤثر فيك حديثهم عنّا
- أما تدري لماذا ذهبت إلى هناك ..كنت بصحبة صديقة فقط
- رفض أبي سفري للخارج لأنه لا يحتمل سفري أنا وأحمد في وقت واحد .
- مُحق
- لماذا ؟
- حاجة والديك لك .. أحق إلى أن تسعي من أجلها أكثر من حاجتك للمال
- إذا فأنت أيضا لا تؤيدين السفر..
- ليس تماما .. ربما لو عاد أحمد تتغير الرؤية
- لكنك تعلمين أن دخلي لا يكفيني .. سنحتاج سنوات طويلة حتى نصل إلى كل ما نريد
- هكذا يجب أن تكون الحياة ..ماذا نفعل فيها إذا وصلنا إلى كل ما نريد في أوقات قليلة منها.

كانت الأوقات القليلة التي يمضيها عمر وزهرة معا هي الأكثر سلاما في حياتهما ؛ رغم كل ما يتحدّثون عنه من

مشكلات تقابلهم . كل منهما لا يخشى غدرا أو كذبا من الآخر .. يشعر بالاطمئنان إليه و إلى صدق كل ما يقول و لا يتشكك أحدهما في نصف ما يقوله الاخر. لكن كيف يكتمل اطمئنان مع كتمان، كيف نطمئن لآخر و نحن نخشى البوح ببعض من مكنوننا له خشية ألا يقبله و ربما خشية أن يفضحه.

تذكرت حكاية نورا مع نادر و كيف أنها اضطرت لاختلاق موقف لأنها لم تجرؤ على الحديث إليه و استشارته فيه كأخ يحبها ، فسألته :

- ما المانع أن تختفي القيود بين الأشقاء مثلما تختفي بين المتحابين أثناء الحوار؟
- ليس كل الأشقاء سواء ...لكن لما هذا السؤال ؟
- نورا في مثل سني ..و أنت تُدرك أن ذوي العمر الواحد تتشابه حاجاتهم .. وخاصة تلك الحاجات التي لا يحكمها مجتمع أو طبقة اجتماعية.. تحكمها الإنسانية فقط مثل الحاجة إلى الآخر مثلا .

هنا انتبه عمر إلى ما تقصده زهرة ...و بدأت أنفاسه تغوص أعمق في صدره ثم قال :

- أي آخر ؟؟ إن علاقتنا بالجنس الآخر .. محكومة بالدين ثم العادات والتقاليد
- أعي ما تقول .. لكن ماذا تفعل الفتاة إذا تحركت داخلها مشاعر ليس لها عليها أمر ولا نهي .. تجاه شخص ما

قال عمر بغضب :

- تتجاهلها أو تكتمها
- و إن لم يمكنها.. ربما فضحها خجلها .. إن لم تنطق بكلمات
- تبتعد ..ذلك أكرم لها ..لأنه من غير المعقول أن تقرر هي الارتباط بشخص ما

- و هل هذا هو الشرع ؟ أم العادات ؟

غضبت زهرة ليس من حديث عمر و لكن لموقف نورا الذي جعلت مسؤوليته على عمر . و قالت :

- أليس من حقها أن تتحدث إلى أخيها أو أبيها مثلا ، فربما أوقعها القدر فيمن لا يخشى الله ... تتحدث و لو لطلب النصيحة ممن يعلم و ممن يخاف عليها .

- تلك جرأة منها لو فعلت .. أفلا يكفيها أن تكون لها علاقة برجل دون علمهم .. ثمّ تذهب لاستشارتهم فيما تفعل و هي تعلم يقينا أنها مخطئة في فعلها .
قالت زهرة متسائلة :

- ألا تُخطئ أنت .. ألم تُخطئ قط ؟ لما هو خطأ على الفتاة من دون الرجل و قد ساوى الله في العقاب عليهما .. لما نُفرّق نحن ؟ أليس هذا بظلم ؟.. لما يرفض المجتمع امرأة أخطأت مرة واحدة و يقبل رجل أخطأ عشرات المرات و يلومون عليها من دونه؟ لما لا يرفض الاثنين على حد سواء ؟ .. احتراما للشرع الذي جعل عقوبة الزنا واحدة للجنسين.

بدا اعتراض في ملامح عمر على حديث زهرة ، وتولّدت في نفسه شكوكا حول أسباب إثارتها لهذا الحديث. لكن شكوكه لم تتجه لحظة أنها قد أثارت هذا الحديث من أجل أخته . ولكي يقطع الشك باليقين سألها :
- ما الداعي لهذه الاسئلة كلها ؟
- أبدا .. كنت فقط أُفكر أنه لو عاقب المجتمع الجنسين بنفس القانون لتحاشينا الوقوع في كثير من المشكلات.

عندما عاد عمر إلى المنزل كان يفكر في حديث زهرة و عندما رأى نورا ..كان يتساءل هل تُفكر نورا بنفس الأشياء التي تُفكر بها زهرة .. إنهما صديقتان . و ما الذي يدعوهما إلى مثل تلك الأفكار. إن مثل تلك الأسئلة لا تتواجد إلا مع مشكلة ..و ليس أي مشكلة بل مشكلة صعبة الحل .. ترى هل تمر أيهما بمشكلة أم أنها ربما مشكلة أثّرت فيهما . سأل أخته عن أحوالها الدراسية و أخبرها أنه قد صرف خاطره عن فكرة السفر ، فقالت بصوت هادئ:

- جيد .. فابتعاد أحمد يكفي

و لم تنطق كلمات أكثر فقد اعتادت أن تحبس مشاعرها داخل نفسها و لم تعد تحب الحديث الطويل مع أي فرد و صارت تكره حتى مجرّد الكلام و تشعر أنه عبء ثقيل على نفسها .
لم يحاول عمر أن يسألها المزيد و خاصة عن سبب ابتعادها عن الأسرة .. إذا كان مشكلة ما تمر بها أم هو مجرّد انشغالها بالعلوم .. إنه يخشى أن تحكي له عن مشكلة لن تكون مشكلة لو أخبرته بها . بدا لعمر و هو ينظر لأخته و هي في صمتها أنها لو تحدثت لفشل في مساعدتها أو مجرد أن يطمئنها. و غالبا كان ظنه صحيحا، لذا فهم يفضلون صمتهن.

الفصل الثاني والعشرون

عادت الفتيات الثلاث إلى المدينة بعد انتهاء إجازة نصف العام.

واقتنعت نورا بأنه ليس من العدل أن نعاقب أحد بذنب غيره و عاد حالها مع سمر إلى ما كان عليه . و دعت عائلة الطواحني ابنتهم سمر إلى زيارتهم مرات أخرى ، ولم يتكرر حديثهم في أمر د/ أحمد و ذلك لأنهم قرروا ألا يلجأوا إليها مباشرة بخصوص هذا الموضوع وأن يواجهوا والدها كي يمنعها عنهم و يقنعها بالحقيقة التي يريدونها . لكن والدها خيّب أملهم و قال لهم :

- أنا لا أراقب ابنتي في كل ما تفعله ..لأني أثق في مراقبتها لنفسها . لا يمكنني أن أمنعها عن شيء تفعله و هي واثقة منه .. إنها حرة .

و أضاف لهم أنه يعرف أن صديقتها التي مضت معها الإجازة ليست على علاقة جيدة بعائلة الطواحني. و لكنه لا يمكنه أن يمنعها عنها .

و بعد مناقشة طويلة بين الطرفين خرج السيد حسن الطواحني يائسا من قدرة والد سمر على التأثير فيها . لكن الوالد لقي سمر بوجه غاضب عند عودتها و أخبرها بما حدث و رغم غضب والدها إلا أنها شكرته لأنه حافظ لها على حقها في اتخاذ قرارات تخصها بحرية . و شكرته أيضا لأنه علمها كيف تتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب و لأنه دافع عن حريتها ضد من حاول كبتها ؛ واقتربت من والدها و تابعت :

- أنت حقا .. أب رائع وعظيم

لم يجد والد سمر ما يقوله لها لكنه ابتسم أخيرا وقال :

- مثلما أحب لباقتك إلا أنني أخشى عليك منها .

كان شعور سمر بالنجاح في مهمتها فيما يخص د/ أحمد رائعا ؛ لذا قررت أن تستغل ذلك النجاح سريعا قبل أن يزول غضب الطواحنية لصالح د/ أحمد . تظاهرت أنها لا تعرف بزيارتهم لأبيها و صارت تتصل بهم كثيرا للاطمئنان عليهم . سعت إلى توطيد علاقتها بهم أكثر حتى تكون أقرب لقلوبهم وضميرهم فيقبلوا منها ما تقول . و كان لديها احتمال أن تطلب منها العائلة

أن تبتعد عن نورا وزهرة و ربما يذكروا لها ما حدث تفصيلا حتى يتم ما يرغبوه .
و كان لها ما توقعت ، فلم تمض بضعة أسابيع حتى فوجئت بعمها حسن الطواحني يدعوها لزيارتهم في القرية . وافقت سمر و قالت :
- هذا يسعدني جدا .. لكنّ ليس بأمري أن أقرر الوقت الملائم .. سأتصل حالما يمكنني .. لأعلمكم بموعد الوصول .

و سريعا ذهبت إلى نورا وزهرة تسألهم عن موعد زيارتهم التالية للقرية ، لأنها ستذهب معهم ، فقالت نورا :
- نهاية الأسبوع
لكن زهرة اعترضت وقالت :
- الأسبوع التالي ..لا يمكنني هذا الأسبوع أن أمنح نفسي أي إجازة.

سألت سمر : هل هي ظروف سيئة تمنعك من السفر؟
- ستكون سيئة لو دامت أطول من ذلك ، فالامتحانات موعدها يقترب و المشكلة التي تقابلني لو لم أجد لها حلا ستصبح عقدة في الأسبوع القادم

سألت سمر نورا :
- ما أخبار د. أحمد؟
- تجري أموره بطريقة جيدة

فقالت زهرة لسمر :- أعلم أنكِ تقصدين من سفرك أمر ما هذه المرة، ما غايتكِ؟
قالت سمر:- أحاول أن أكون واسطة خير
فقالت نورا بدهشة:- واسطة خير؟!
و أتمت زهرة دهشة نورا قائلة:- لمن؟
فقالت سمر و هي تتابع نظراتهما:- د. أحمد.. ألا تشتاقين لرؤية أخيكِ يا نورا؟

ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتي نورا:- كثيرا، كثيرا جدا
ابتسمت زهرة بسعادة قائلة:- هل يعود أحمد؟
أجابتهما سمر:- لتكن لنا محاولة.. أو على الأقل لنكون سببا في وجود محاولة للصلح.

ارتسمت ابتسامة صافية على وجوههن و قررن السفر نهاية الأسبوع .
كانت زهرة مشغولة في التفكير في المشكلة التي تواجهها في الكلية. لقد حصلت على تقدير ممتاز في (التيرم الأول) و تخشى أن يؤدي الصراع بين رئيس القسم وأستاذ المادة إلى آثار سلبية عليها و على زملائها .. حاولت كثيرا أن تشتكي إلى رئيس الجامعة أو عميد الكلية بخصوص تنازع رئيس القسم وأستاذ المادة على منهجها و الكتاب المقرر لها . الاثنان يشرحون و كل واحد يقول أن الآخر ليس على حق و لم تبق غير أسابيع قليلة على الامتحان . الطلبة تخاف أن تتجه إلى جهة تحسم الأمر و ينتظرون حتى تنتهي المشكلة دون تدخل منهم أو لا تنتهي أبدا و الأغرب أنهم لم يتخذوا موقفا حيال أي من أستاذ المادة أو رئيس القسم . إنهم يحضرون للأستاذين وبعضهم يذاكر منهجين دون أن يدري في أي منهم سيكون الاختبار ، و كانت زهرة تفعل نفس الشيء.
بعد أيام قليلة كانت سمر تجلس مع عائلتها في القرية. هذه المرة ذهبت بمفردها . وتوقعت أن يطرح أحدهم مشكلة د/احمد ، لكنهم لم يفعلوا وكأنهم يخشون ذلك. لذا بدأت الحديث متسائلة :

- عمي حسن ..لما أخبرت زهرة أن عائلة عمر عبد الجواد ليسوا طيبي السمعة ؟
= تسببوا في مشكلات كثيرة لنا
- مشكلات هكذا دون أي أسباب منكم ..

= لقد تدخلوا فيما لا يعنيهم ..تدخلوا في حياتنا
- و لماذا لم تنتهي تلك المشكلات حتى اليوم ... محو الخلافات بين عائلة السيد عبد الجواد و عائلتنا من مصلحتنا
= مصلحتنا..! لماذا ؟
و بدأت سمر في سرد كذبتها التي بدأتها المرة الفائتة و تقول :
- لأن د/أحمد ولدهم عندما يعود من الخارج من المحتمل جدا أن تكون له منزلة كبيرة قد تنفعنا .
- لن يعود
- لماذا ؟
- لأننا نريد ذلك
- لماذا ؟
صمت الرجل طويلا وكأنه لا يريد الجواب ؛ فألحّت سمر و كررت السؤال :
- لماذا لا تريدون أن يعود د/أحمد وجوده بالخارج لا يُفِدنا شيئا
- من الأفضل ألا تتدخلي في شئون ، قد لا تعين بواطنها جيدا .
و لم يكن يقصد ببواطن الأمور هنا أي شيء يتعلق بالقضية أو بوفاة أبيه و لكنه كان يقصد أنهم حينما يتركون شابا كأحمد يتجرا عليهم وإن كان بالحق و لا يؤدبونه فإنهم سيدعون كل من في القرية يستهين بهم و لا يخافونهم . لم تقتنع سمر بالنصيحة وقالت :
- و جوده في الخارج لن ينفعنا شيئا ، لكن من الممكن أن نستفيد بعودته
كان لكلمة "نستفيد" أثر جيد في نفسه، لذا انتبه إليها أكثر قائلا:
- كيف ؟ ذهابه بعيدا يُحقق انتقام لما فعله في أخي السجين الآن بسببه
- أي انتقام .. إن شأنه يعلو كل يوم أكثر هناك و تزوج بامرأة أمريكية و ربما يحصل أو يكون قد حصل على جنسيتها بعد أن

صار له طفلة جميلة و جهد واضح في عمله.
- كيف علمتِ بذلك ؟
- رأيت الصور .. صوره مع زوجته وابنته ..وانتبهت سمر ثم تابعت :
- تقول أنكم تنتقمون منه لما فعله في عمّي .. إذا فهو لم يقتل جدي .. أليس كذلك ؟
و تردد فيما يقول لها .. لكن لا يعرف أحدا من وضع السم في معدة الرجل . أثبت الطب الشرعي أن السم قدُوصل إلى فم الرجل ومعدته بعد الوفاة . ولم يعرف أحدا من فعل ذلك و انتهت القضية بعد براءة أحمد و اعتراف الطبيب الشرعي أن الوفاة غير جنائية . لم يعرف أحدا أن حسن الطواحني هو من وضع السم في فم أبيه بعد خروج أحمد بوقت قصير مُستخدما سرنجة حقن و خرطوم محاليل . ولم يُراعي أن ما يفعله فيه إهانة لوالده الميت كل ما كان يهمه هو الانتقام ..و قد تحقق الانتقام و لم يكتشف أحد ما حدث فكيف يتحدث هو ليقول بلسانه أنه من فعل ذلك.

وفاق من أفكاره وقال :- أُثبتت براءته و انتهى أمر القضية .
ثم سكت وكأنه لا يريد المزيد من الحديث . لكن سمر لم تكف عن الحديث وسألت :- ألا نزرع البانجو حقاً ؟ وقد أبلغ عما عرفه ورآه جريمة ؟

- أنت تعلمين الحقيقة كاملة ..لماذا تسألين كثيرا ؟ و من قال أن زراعة البانجو جريمة، هذا رأي الحكومة، نحن لا نجبر أحدا على تعاطيه، إنه كَيفٌ.. أو قولي محاولة من بعض المتعبين للراحة.. إن كانت الحكومة لا تريد الناس أن تتناول المخدرات فلتعالج ما يدفعهم إليها.. نحن لسنا أصل المشكلة، فمن لا يموتون من المخدرات يقتلهم الهم الذي لا يفارقهم و

الدكتور أخطأ عندما رأى في نفسه مُصلحا للكون؟

و كأنها مقتنعة برأيه، و ربما اقتنعت بجزء منه، لم تتفاجأ و أكملت حديثها على أساس أن أحمد أخطأ حقا حينما قام بالإبلاغ عنهم، و قالت:

- لا يهمني شأنكم مع تجارتكم، هذا يخصكم و أنتم أعلم به، لكنني أبحث عن مصلحتنا في الموقف وليس مُجرّد تعذيبهم ..لن نستفيد كثيرا من ابعاده . ولكن يمكن أن نستفيد إذا جعلناه قريبا من أهله و لكن بمقابل..!!! فإبعاده كي يكبر و يعظم شأنه ليس عقابا و إنما مكافأة
- ماذا تعنين ؟
- أعني أن قوته يوما ستكون أكبر من أن تواجهونها و ربما عاد لينتقم منكم هو و نظل في دائرة لا تنتهي ؟

و قال حسن الطواحني ساخرا :
- أي دائرة .. إنهم أضعف من أن يفكروا في الانتقام... أقصى ما يمكن لمثل هؤلاء أن يفعلوا هو أن يكرهونا.

و تمتمت سمر بكلمات غير مفهومة ثم قالت :
- و لكن واحد منهم استطاع أن يصلكم بأذى . دون رغبة في انتقام او إحساس بالكره ... إنه فقط استخدم حقه . و مهما نفعل سيظل يُعلن دائما أنك اغتصبت حقه ولن يمكنك إعلان أي شيء آخر .
غضب الرجل من قولها و لكنه قال :-
- فليعلن كيف يشاء .. ليس هناك من يسمعه وإن سمعه أحد فلن يفعل لأجله شيئا ..مازالت القوة معي .
ساد صمت طويل مرة أخرى شعرت معه سمر أن دهرا مضى

و هي تحاور عمها بلا فائدة .و قررت اغن تذهب لكنها عادت بعدما ابتعدت خطوات قليلة عادت إليه وقالت :

- أنتم الأقرب والأهم لي ..علينا أن نجد منطقة وسطى بيننا وبين هذا الرجل ، قبل أن تعظم شوكته و لا نستطيع كسرها .

تركت سمر منزل أعمامها و ذهبت إلى زهرة . كانت تشعر بإحباط كبير . عائلتها عنيدة تثق في قوتها أكثر من أي شيء آخر . كانت تتمنى لو استطاعت إنهاء المشكلة .. لكن لصالح من؟

هل حقا كما تقول لصديقاتها إنها تفعل ذلك لصالح عائلة السيد عبد الجوّاد أم كما تقول لعائلتها أنه

لصالحهم . لقد باتت سمر ليلتها في قلق مما يحدث. كيف ترجو الظالم أن يعفو عن المظلوم دون أن يعوضه عن ظلمه له ثمّ يرفض الظالم متكبرا متجبرا؟

تفكير سمر العملي المادي البحت يؤكد لها أن كل طرف يسعى لتحقيق أكثر منفعة من الطرف الآخر، وأنها على أي حال يجب أن تنضم الأقوى دون أن تخسر الضعيف، تلك هي السياسة، لا العدالة، العدالة صعبة التحقيق و خاصة مع نفوس تملأها المطامع إذا فلنترك خزائن الطماعين تمتلئ و تزداد في مقابل حفظ الضعفاء على قيد الحياة.

و تمتمت " لن أخطئ مثل أحمد و أحاول إصلاح الكون ليكون المقابل خسارة عمري و لكني سأسير مع الأمور فقط "، و على ذلك فقد أيقنت أن عائلتها لن تفعل شيئا لمجرّد الخوف من غد مجهول و دون منفعة حاضرة.

كانت زهرة تجلس صامتة في الحديقة و كأنها تحمل تلا من الهموم .. تنتظر نورا وعمر اللذان جاءا لزيارتها قبل عودتها للمدينة في اليوم التالي .

اجتمع الأربعة عمر ونورا وزهرة وسمر في الحديقة و لأول مرة يلتفون في صمت لا يتحدث أحدهم.. صمت خانق قاتل .. تخشى الكلمات معه أن تُحرك الحناجر فتُصدر أصواتا يسمعها من يغضب لسماع صوت غيره . كلهم و بما فيهم سمر التي تتقد ذكاء كانوا يشعرون وكأن شيئا من حقوقهم قد اغتُصب و لن يستردوه مرة أخرى .
كلهم ينتظرون نفس الحلم أن يأتي إليهم ذلك الضيف الذي انتظروه طويلا، الحرية..
لكنه لن يأتي دون أن يطلبوه ويبحثوا عنه ؛ وإلا فلن يُقدّروه حق قدره .. لأن الضيف الذي لا يأتي بموعد غالبا ما لا يستضاف كما يجب أو كمن جاء بموعد و تمّ الإعداد له . و لأن أحدا لا يمكنه أن يقول لهم تفضلوا بعضا من الحرية والشجاعة عيشوا بها واحصلوا على حقوقكم حتى تكونوا قادرين على أن تصنعوها بأنفسكم .

فجأة تحدثت زهرة و قالت بصوت غاضب :
- إلى متى سنظل بهذا الجبن وهذا الضعف ؟
سأل عمر : - من تقصدين ؟
أقصد زملائي في الكلية و الأستاذ ومشكلته مع رئيس القسم و خوفنا من مواجهتهم . و عدم قدرتنا على المطالبة بتحديد المنهج الذي سنُمتحن فيه والامتحانات على الأبواب ..متى نتخلص من تلك السلبية ؟
قالت سمر :- عندما نكون أقوياء..!!!
سألت نورا : - ومن أين نحصل على هذه القوة ؟
أجابت زهرة :- عندما نتخلص من عادات سخيفة دون عودة إلى دين أو علم.. نتخلص من خوفنا من لا شيء .
و تدخل عمر :
- العادات و التقاليد هي ما تميز الشعوب عن بعضها، كيف

نتخلص منها .. ليس كل ما عند غيرنا جيد و كذلك ما عندنا .

اجابت زهرة :- يكفينا ما عندنا فيما أنزل الله من أخلاق حسنة لو اتبعناها .. لحُلّت كل المشاكل .. إننا نضع على أنفسنا قيودا للتعجيز بهذه التقاليد ليس أكثر.

قالت سمر :- هل تعتقدون أن ما تقول عنه زهرة من مشاكل في كليتها موجود فقط عندها .. إنه في كل الجامعة ...!

قالت زهرة و قد شعرت أن مشكلتها في مادة تدرسها قد تضخمت حتى صارت مشكلة مجتمع :-

- لو أعطى رئيس القسم جزء من سيادته الى أستاذ المادة لوصلوا إلى حل مناسب . ولو أعطى كلاهما جزء من سيادته لنا نحن الطلاب لاستطعنا أن نصرخ ونقول عندنا مشكلة ونريد حلا دون خوف ربما لو استمعنا و تحدثنا جميعنا بأدب ودون خوف ..لوجدنا الحل المتزن .

قاطعتها سمر :- هل تسألين السيد أن يتنازل عن جزء من سيادته لمن يسوده و يتبدد إحساس المسود بالخوف والرهبة من سيده.. مستحيل لأن شعور السيد بخوف من يسودهم له يجعله دائما في اطمئنان على سيادته .. هذا ينافي الطبيعة البشرية ..

ارتفع صوت نورا فجأة و هي تقول :- الفاسدة .. ما تقوله سمر لا ينافي إلا الطبيعة البشرية الفاسدة المريضة .

و هنا قال عمر :

- و ماذا يُفسد الطبائع البشرية ؟

قالت سمر :- الظلم

و أضافت نورا :- الخجل.. إننا نخجل دائما أن نعترف أننا

في موقف ضعف و ندّعي كذبا أننا أقوياء.. رغم أن اعترافنا بالحقيقة ولو كانت سيئة هو الطريق لإصلاحها .. أما الكتمان والكذب فيجعل المشاكل تتعاظم حتى لا نقدر على مواجهتها بأنفسنا

قال عمر :

- صرنا لا نحب النظر لأبعد مما تحت أقدامنا حتى صار كل طالب يواجه مشكلة زهرة يُفضل نجاح ضعيف أفضل من رسوب .. و كل إنسان يُفضل حياة ذليلة عن الموت.. أصبحنا نعمل بالمثل القائل كلب حيّ أفضل من أسد ميت و لكن ليس على ما يفسره الناس بأن امتلاك كلب حي أفضل من امتلاك أسد ميت و لكن على أنه " عش كلبا و لا تمت أسدا "

قالت زهرة :- إننا جبناء .. نعم جبناء .. أجبن من أن يكون لنا رأي .. أجبن من أن نطلب حاجاتنا . لقد مللت الجامعة وكرهتها و بالرغم من ذلك عليّ أن أذاكر و أنجح .. لماذا ؟ لست أدرى ..

ثم أضافت :- كنت أحلم ..كنت أعمل لأجل حلمي .. أما الآن.. فلماذا ؟

وخيّم الصمت مرة أخرى على الجميع كل واحد يُفكر في أمره حتى قالت سمر :

- علينا أن نفكر في حل .. لمَ هذا الحديث الكثير .. يجب علينا أن نفعل شيئا سنضيع بطريقتنا هذه في الحياة . سنضيع أكثر وأكثر لو ظللنا صامتين .

قالت زهرة :- سأذهب إلى رئيس القسم و عميد الكلية و إن لم يفعلا شيئا فسأذهب لرئيس الجامعة و إن لم يكن لديه حل فإلى الوزير ...حتما أن واحدا منهم على الأقل لديه حل .

و قبل أن يُضيف أحدهم كلمة ارتفع رنين الهاتف الخاص بسمر.. قالت سمر : إنه عمي حسن الطواحني .

كان الجميع يترقب نتيجة المكالمة و سمر تتحدث . فلمّا انتهت سمر من حديثها قالت وهي في غاية السعادة لنورا وعمر :

- عمي يطلب من والدكم موعد للزيارة

تبادل الجميع النظرات الممتلئة بالأمل ؛ فهذا يعني أن مشكلة د/أحمد مع الطواحنية ربما تجد حلا في وقت قريب .

و أطاحت زهرة بفرحهم عندما قالت :

- ما زلنا ننتظر أن يمن صاحب القوة على صاحب الحق بالسماح .. شيء مؤلم ..لماذا يحدث ذلك ؟

قالت سمر معترضة :

- إن طلب الصلح ليس منّة من الطواحنية على د/احمد بل احتراما وتقديرا له و لقوته.

و رأت سمر نظرات استفهام في عيني زهرة فتابعت قائلة :

- نعم .. قوة د/أحمد .. لقد قمت بتوضيح ما سيصل إليه من تميز و قوة عندما يستمر في تفوقه العلمي بالخارج .. إن العلم قوة تغلب وتفوق قوة المال .

الفصل الثالث والعشرون

لم تكن القوة التي قالت عنها سمر في حديثها هي السبب

ضيف لم يأت، ل هناء منصور

الوحيد الذي دعا الطواحنية إلى زيارة السيد عبد الجواد ولكنهم أضافوا سببا آخر . سبب لم يتوقعه أحد منهم لم يخطر ببال أحدهم قط . فقد أعلن حسن الطواحني للسيد عبد الجواد أنه لن يعترض حياتهم أو حياة ابنهم في شيء وأنه جاء إليهم ليُعلن ذلك و ليأتوا بمن يشاءون ليشهدوا ..لكن نظير ذلك على أحمد أو والده أن يدفع و لو على الأقل جزء من الأموال مقابل ما ضيعه عليهم ابنهم و سيسامحون في السنوات التي يقضيها قريبهم في السجن .

قال السيد عبد الجواد :

- هل تطلبون دية مقابل سلامة ابني ؟ تطلبون أموالا كي يعود دون تهديد ؟
- ليس تماما و لكننا نُريد ما يكافئ من الأموال ؟
- لا أفهم ما تقصدون
- نريد فدانا من أرضك ..نحتاجه في ضرورة

فكّر السيد عبد الجواد قليلا ثم قال :-

- فدانا من أرضي ..! و ما المقابل ؟
- سلامة ابنك ؟
- تساومونني على حياته التي تهددونها .. تُساومون على شيئين ليس لكم الحق في أيهما ؟ يا الله ...يا الله ماذا حدث ؟

غضب حسن الطواحني و قال :- ما جئنا إلا رأفة بحالك ... فلا تُقدم الخطأ .

و لم يكن القرار سهل بالنسبة له فالأرض عرض و العرض كالحياة . إنه يبيع حياة مقابل حياة أخرى و من يتحكم ليس له الحق لا في الأرض ولا في تهديد ولده . فقال لهم :

- دعوني وقتا كي أُقرر.

عندما سمع الأبناء شرط الطواحنية لإزالة التهديد تعجبوا .

فاقترح بعضهم الرفض وأنه مازال أحمد يعيش هانئ البال هناك فماذا يدعوه للعودة . وليذهب إليه والداه إذا ما أرادا، فالسفر أقل كثيرا من ثمن فدان أرض . و قال آخرون أن يدفع لهم السيد\ عبد الجواد ثمن الفدان و لا يعطيهم أرضه أبدا ، لأن أخذهم الأرض يُضيع كل ما فعله أحمد منذ البداية حينما أبلغ عن مخدراتهم .

وسألوا السيد عبد الجواد :- هل تعطيهم أرضك ليزرعوها سموما و بدلا من أن يقتلوا ابنك وحده يقتلوا مئات .

لكن السيدة فتحية كانت صاحبة القول الأكثر تأثيرا فقالت :-

- أعطهم ما يشاءون و ليعد ابني سالما ..فمال الدنيا لا يغنيني عن ساعة أنعم به إلى جواري

و لم يوافق الطواحنية ببديل عن الأرض مقابل سلامة د/أحمد فوافق السيد عبد الجواد والمرارة في حلقه و اشترط عليهم ألا يتم أي شيء حتى يعود ابنه و يراه في سلام أمام عينيه و ساعتها فقط سيُسلمهم الأرض .

الفصل الرابع والعشرون

مضت الأيام سريعا بعد إبلاغ د/أحمد برغبة والديه في

حضوره إلى الوطن في أقرب وقت ممكن ، فلم يعد هناك ما يدعو لهروبه خارج الوطن . طلب أحمد تأجيل موعد عودته حتى الخريف لإنجاز بعض المهام . انتهت امتحانات آخر العام و بقي الجميع في القرية ينتظرون الغائب. نجحت زهرة في العام الأول من دراستها بكلية الزراعة وحصلت على المركز الأول على دفعتها و استطاعت أن تكون سببا في حسم المشكلة التي كانت بين رئيس القسم والأستاذ .فأرسل لها عميد الكلية دعوة على عنوانها في القرية كي تحضر حفل تكريم الأوائل ؛ لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن فتراها روزان وهي تتسلم بطاقة الدعوة من الساعي و تأخذها منها عنفا .. تقرأها و تفضح أمرا سترته زهرة عاما كاملا عن والدها ..فيقرر السيد علي حرمان زهرة من دراستها الجامعية نهائيا وأن عليها أن تنتظر في المنزل حتى تتزوج ؛ لأنها غير جديرة بثقة والدها بعدما خدعته و درست في كلية رفض التحاقها بها . دافعت زهرة عن حقها مرارا أمام والدها ، لكنه أصرّ على الرفض . كانت تحترق غيظا حتى أرشدها شيطانها إلى الانتقام من أختها التي فضحتها وكانت السبب في ذلك .

قررت زهرة ان تفضح كذب روزان و ابتزازها لأموال والدها

أمام زوجها و في وجود الزوج بدأت تسرد ما تقوله روزان من أكاذيب لوالدها عن أحوالهم المادية بل وعن إعلان رغبتها في الإنفصال عن زوجها لأنه غير قادر على نفقتها و كان زوج روزان عفيف النفس كريم الأصل إلا أنه كان لا يملك من المال كثيرا و كان يُحب أن تقنع زوجته بما عنده . لكن روزان كانت تبذر الشك في قلبه كلّ مرة تنفق فيها أموالا زائدة ثمّ تقسم كذبا إنها أرخص من سعرها الحقيقي أو أنها استعارت أشياء من صديقة . و قالت روزان بعصبية

لزهرة وهي تتحدث :

- اصمتي .. ما هذا الذي تقولينه ؟ هل تدّعين علي ؟
- لماذا اصمت ؟ لدى زوجك الذكاء الكافي ليُحدد ما إذا كنت ادّعي أم لا .

كان أسلوب زهرة مستفزاً للغاية لدرجة جعلت زوج روزان يترك المنزل بعد مشاجرة ساخنة بينه وبين زوجته و لم يعد إليه إلا بعد عدة أسابيع .. قرر خلالها الإنفصال عنها .

الفصل الخامس والعشرون

كان أحمد يشعر بسعادة بالغة و هو يتلقى اتصالا من مستر

توماس والد ماري لأنه قد حجز لهم تذاكر السفر و لكنه لن يتمكن من زيارتهم اليوم لانشغاله ببعض الأعمال . طلب مستر توماس من أحمد أن يحضر إليه في مركز التجارة العالمي حيث مقر عمله كي يتسلم منه التذاكر . وصل أحمد إلى مقر عمل مستر توماس و أخبرته سكرتيرته أن ينتظر قليلا ، فكان في غاية الشوق إلى وطنه ، يتمنى لو يعود إلى عائلته وتضمه أمه الى صدرها في حنان .. إنه يفتقدها كثيرا يتمنى لو يمسح دموعها التي تنساب كلما هاتفها، بيديه .. و عاد إليه الحلم في أن يشارك في بناء وطن عادل قوي .

في ذات الوقت كانت ماري تُعد حقائب السفر للرحيل في المساء و رحمة حولها تلعب وتغني ..لكنهما فزعتا فجأة من صوت انفجار عظيم من مكان ما حولهم ..كادت جدران شقتهم تهتز من أثر الانفجار .. الصوت لا ينقطع و كأن الجحيم قادم ليبتلع المدينة كلها .

انقبضت ماري كثيرا و احتضنت ابنتها بقوة . حاولت الاتصال بزوجها ثم أبيها ..لكن لا رد تجده ..فشبكات الاتصال لا تعمل . اتصلت ب مايك الذي قال لها و هو يصرخ :

- حطموا مبنى التجارة العالمي
- ماذا ؟... أبي

استدركت ماري ثم قالت بصوت لا يكاد يخرج من حنجرتها :

- أبي

كررت محاولات الاتصال بأحمد لكنها لم تجد ردا حملت ابنتها و خرجت تبحث عنه ؛ فاخبرها رئيسه في العمل أنه خرج قبل الانفجار بوقت قصير . ذهبت ونظرات الألم والخوف تتزايد في عينيها و نبضات قلبها ترتعد و لم تقل كلمة . كان شيئا ما داخلها يقول أنه ذهب مع من ذهبوا ولن

يعود .
مضت أيام و لم يظهر أحمد او يعود ..فصار مؤكدا لماري أنه قُتل مع ضحايا البرج .
ماري امرأة أمريكية مسلمة ، بعد الإنفجار صارت تُعامل معاملة سيئة جدا من بني وطنها وجنسها . كلّما رأوها ترتدي الحجاب الذي هو رمز للإسلام عندما تنزل الى الشارع لتذهب إلى أي مكان لا تتوقف لها سيارة إلا نادرا .و إذا ما ذهبت إلى السوق تتبضع اشاروا عليها وقالوا :- إرهابي
ساءت أحوالها أكثر بعد سفر مايك للعراق فقررت أن تذهب إلى وطن زوجها هروبا مما تعانيه في أرضها وبحثا عن السلام.....
و عندما استقرت في مقعدها على متن الطائرة ؛ سألتها طفلتها :
- امي.. إلى أين سنذهب ؟
- إلى أرض فيها سلام ..سنذهب إلى أرض والدكِ
- و لماذا لم يأت معنا والدي ؟
- لأنه قُتل
- و من قتله ؟
- مؤكد أنهم شريرون ..لكني لا أعرفهم

- أمي هل صنعوا قبرا لوالدي حتى نزوره عندما نعود ؟
انسابت الدموع من عيني ماري وهي تقول :
- حتى تلك الذكرى حُرمنا منها ...

كلمة أخيرة من الكاتب
"الحرية ليست فوضى ولا جعجعة بلا فعل، الحرية قوة إرادة و علم و عمل"

هناء منصور

تمت في مارس 2006

إلى اللقاء مع الجزء الثاني